**عبد الباقـــي يوســـف**

# طريقـــة للحياة

**مجموعة قصصية**

طريقة للحياة
عبد الباقي يوسف
قصص

فهـرس

القسـم الأول :

١ - القربان
٢ - سر الخرزة الزرقاء
٣ - نظرات مريبة
٤ - الصفعة
٥ - النداء
٦ - الطيف
٧- أيام ليست لنا

القسـم الثانـي :

١- هجري
٢ - وهـج القبلـــة

القسـم الثالـث :

١ - أم الأطفال
٢ - لاتلعب بذيلــك
٣ - زهور المرض
٤ - خمس ليرات

# القســـم الأول

## القــربان

هل سيكون بوسعها أن تعيش يوما يكون فيه بونجغ غائبا عن الحياة ، وأي حياة جافة ستكون تلك التي لاتتفوح برائحة بونجغ ، كأنها تعيش فقط من أجل أن تراه كل يوم وتطمئن على وجوده سليما ، وعندما يغيب يوما عن البيت ، تلبث مستيقظة ، مشتتة الذهن إلى أن يعود .
لم يسبق لها أن ذاقت لذة النظر إلى وجه مخلوق كما تتذوقه وهي تضع أنظارها على محياه ، كأنه سيهرب بعد لحظات ولن تراه ثانية .
تأنس حواسها لرائحته ، ترتاح أذناها لسماع نبرات صوته .
عندما يكون نائما ، تنظر إليه بعمق كأنها تنظر إليه أول مرة ،
عندما يكون جالسا ، لاتملك نفسها إلا أن تنظر إليه ،
عندما يكون واقفا ولو بين مائة شخص لايلفت نظرها غيره ،
حتى عندما يكون غائبا فإنها تسترجع نظراتها إليه ،
تسترجع رائحته ،
تستعيد نبرات صوته .

عندما بلغ الخامسة من عمره كانت أحيانا تحبسه في البيت حتى لايخرج ، وكانت تتحجج بأنها تخاف عليه من عيون الحسّاد ، لكن الحقيقة التي لاتملك أن تخفيها عن نفسها هي أنها لاتحتمل غيابه ولو لساعة واحدة عندما يلعب فيها مع أطفال القرية في الشارع .

- بونجـغ ، هل سينتهي كل هذا ياولدي

اليوم صباحا قال لها الطبيب هذا الكلام المزلزل ، قال الكلام الذي كان لابد أن يقوله حتى يخرج بونجغ من المشفى بعد مكوثه أسبوعا دون فائدة ، فقد استفحل به الداء ، وهي ساعات معدودة يفارق فيها الحياة .

- لا أمل .. لا أمل

لفظها الطبيب وهو يدرك مدى وقعها على أقرب الناس إليه ، ثم ما لبث أن أضاف بسحنته الجادة : أقول هذا الكلام حتى لا ترهقوا أنفسكم بأخذه إلى أماكن أخرى للعلاج ، أقول لكم بأسف أن كل شيء انتهى ، هذه هي الحقيقة و ليس أمامكم غير الرضاء بواقع الأمر .

لحظتذاك خارت بجسدها المنهك على سريره وهي تطبع قبلاتها الدافئة على يديه الباردتين لتعود بها الذاكرة ثلاثين سنة ، اليوم الأول الذي أخبرتها الطبيبة فيه بأنها تحمل ذكرا بعد ست بنات ، الحلم الذي تحقق أخيرا .

يومها لم تملك نفسها من الفرحة فراحت تضم الطبيبة إلى صدرها وتقبلها على رأسها ، ثم خرجت وهي تنذر خروفين توزع لحمهما على سكان القرية إذا ولد المولود بسلام ، وعندما وصلت إلى البيت قالت لبناتها وهي تخبرهن النبأ بأنها أيضا سوف تمشي حافية القدمين إلى قرية / حانون / التي تبعد مسيرخمس ساعات عن قريتها وتعود سيرا على الأقدام .

بعد ذلك غدت كل مطلع شهر تمضي يوما كاملا في الذهاب والإياب حتى تأتي المدينة لتراجع طبيبتها وتطمئن على صحته .
وفجأة ، قبل الأوان ، ذات ليلة عاصفة بالغة البرودة أحست بأنها ستضعه ، ظنت أنها في حلم ، فهي للتو دخلت الشهر الثامن ، ولم تمض ساعة حتى ملأ صراخه البيت ، البنات الست تحلقن حوله ، ورغبن فيما لو كان الأب حاضرا ليشاركهن فرحة سماع نبرات المولود الأولى ، كان لسوء حظه يبيت الليلة في بيت أحد أخوته في المدينة ، ولم يخطر في باله أن ابنه المنتظر سوف يفتح عينيه على العالم هذه الليلة .
قالت : أريد أن أزداد يقينا ، هل هو حقا ولد ؟
ولد يا أمي .. إنه ولد .
قالتها ابنتها الكبرى / كنز / المتزوجة في القرية نفسها ملء الفم .
ثم راحت تنظر إليه كأنها أصبحت أما لأول مرة .
عندما عاد الأب ظهيرة اليوم التالي ، أطلق عليه الاسم الذي سوف يلازمه مدى الحياة : بونجغ .. إنه بونجغ . وراح يقبل بناته واحدة تلو الأخرى قائلا : أصبح لكن أخ سوف يحميكن ، أصبح لأبنائكن خال .
وعند الصباح ذبح عجلا ودعا كل سكان القرية لتناول الغذاء احتفالا بقدوم بونجغ .
بدأ بونجغ يكبر يوما بعد يوم على يديها ، وهي متفرغة له دون أن يشغلها أي شيء عنه ، وقد خصصت دفترا كتبت اسمه عليه ، تكتب فيه كل مرحلة من مراحل حياته ، وتأخذ صورة له في تلك المرحلة تضعه في ألبوم خاص بنموه .

في الشهر الأول كانت تنظر إلى يديه القريبتين من بعضهما ، وتشابك أصابعه .
في الشهر الثاني بدأ يرفع رأسه ، وينظر إلى الحركات من حوله ، وترتسم على شفتيه بسمة صغيرة .
في الشهر الثالث يحرك قدميه ، ويمص أصابعه ، يكثر البكاء .

في الشهر الرابع يرفع رأسه بشكل جيد ، ويريد أن يتحرك في محاولة ليتقلب على يمينه أو يساره ، يضحك بصوت ملفت .
في الشهر الخامس يستقيم ظهر بونجغ وهي تحاول أن تجلسه ، يحدق في الوجوه وكأنه يبدأ في تمييزها .
في الشهر السادس ينقلب على بطنه ويحاول أن يرفع جسده بواسطة يديه ، وتتشكل أسنانه اللبنية المؤقتة .

في الشهر السابع توقفه على قدميه فيلبث واقفا بمساعدتها ، ينتزع الدمى والألعاب من يديها ، وتسمعه لأول مرة يلفظ : مم .. أي .. آه .
في الشهر الثامن توقفه على قدميه ، وتدعه لبريهات فيميل ، تمد يديها لتسنده وهي تدربه على الوقوف ، يعتمد على يديه في مسك زجاجة الحليب ، ينقلها من يد إلى أخرى .
في الشهر التاسع يزحف بونجغ بشكل جدي على يديه وقدميه ، يقول : ما .. با .. دا .
في الشهر العاشر يقف على قدميه بمساعدة أقل منها ، يحاول أن يقلدها في بعض الحركات ، يبحث بيديه عن الدمى والألعاب .
في الشهر الحادي عشر تمسك به من الخلف فيمد خطواته نحو المشي وهو يقول : ماما .. دادا .
تضع خيطا في أسفل قدميه ليقطع الخيط ويمد خطواته ، وتفرّ ق السكر على أطفال القرية بسخاء .
بعد شهر يمد خطوات المسير بشكل أفضل ويبتعد عنها ، يرفع الملعقة ويأكل بها ، ويصفق لأول مرة .
في الشهر الخامس عشر يرفع جسده إلى الأرجوحة ، وينزل منها ، يصر على بعض الأشياء التي يريدها .
بعد ثلاثة شهور يركض بونجغ في الحوش ، يسمي بعض الأشياء التي يراها .

كل هذا ونساء القرية يقلن أن ونيسة تربي ابنها في عينيها ولاتدعه يطأ الأرض .
حتى أن فطينة التي / بها العين / كما هو شائع في القرية لم تتمكن من أن تنظر إليه قبل بلوغه السادسة من عمره ، كانت عندما تضطر لإخراجه من البيت ، حتى يذهب إلى المدرسة ، تمد رأسها إلى الشارع ، فإن رأت فطينة تجلس أمام أحد الحيطان ، عادت وجعلت إحدى بناتها يراقبنها إلى أن تذهب إلى البيت حتى تخرج به .
عندما حصل بونجغ على / البكالوريا / لم تستطع أن تتخيل بأنه سوف يذهب إلى مدينة أخرى ليكمل دراسته ، فاضطر بونجغ أن بذعن لها عندما رآها على وشك الانهيار وهو يلمح للسفر والدراسة .
وتذرعت بأن البيت يحتاج إلى وجود رجل لأن الأب لم يعد قادرا على متابعة أحوال الزراعة كما كان .
وعندما بلغ الخامسة والعشرين راحت تخطب له أجمل فتاة في القرية حتى ترى أحفادها ، و تطمئن بأن بونجغ قد استقر في الحياة وأصبح رجلا حقيقيا ، وكان شرطها الأول على الفتاة أن تقبل العيش معه في بيت أهله دون أن تطالب يوما ما الخروج من البيت .
وكما أنه تأخر في المجيء ، فإن حفيدها منه أيضا جعلها تنتظر أربع سنوات حتى تراه .
سنوات طويلة حافلة بالأحداث والوقائع مضت كأنها كانت غفوة ظهيرة ، الآن سوف يرحل بونجغ عن الحياة برمتها ، يرحل كأنه لم يكن .

لم يكن أمامهم إلا أن يجلبوه من المشفى حتى يقضي في البيت كما نصح الطبيب المشرف على علاجه ، وقال بأن ذلك لايتجاوز صباح الغد بحسب الحالات المتشابهة التي بلغت هذه المرحلة من الخطورة .
جلس الجميع في ذات الغرفة التي يتمدد فيها بونجغ على فراشه في غيبوبة دون أن يدري ما يحدث حوله ، تأتي أخواته الست المتزوجات

لتطبع كل واحدة قبلة على جبهته ، ثم تقبله زوجته ، ويضعوا طفله في حضنه .
عندما بلغت الساعة الثانية ليلا ، ولبث بونجغ دون حراك ، طلبت أمه أن يخلوا الغرفة حتى تبقى وحدها معه ، لم يكن بوسع أحد أن يعصى الأمر ، حتى زوجها السيد عقيل لم يملك إلا أن يمتثل لهذا المطلب .
جلست الأخوات الست وزوجة بونجغ وطفله برفقة الأب عند عتبة باب الغرفة المحكم ،
ليمضي الليل دون أن يصدر منها صوت ، تبادلت الأخوات نظرات السؤال فيما بينهن ، بينما السيد عقيل ينظر في الأرض دون حراك ، والزوجة تهدهد طفلها وتدندن له بحرقة تاركة الدموع تسيل على خديها .
بعد قليل ومع بزوغ الشفق لفت سائل أحمر اللون أنظارهن ، يرافق ذلك صدور أصوات من الغرفة المحكمة .
رفع الأب رأسه ليرى السائل الأحمر يتسرب من تحت باب الغرفة المغلق .
تتالت الطرقات على الباب دون أن يجيب أي صوت ، ومع تصاعد الحركات غير المألوفة وتسرب السائل الأحمر من تحت الباب لم يبق أمام السيد عقيل إلا أن يحطم الباب ليلجوا الجميع دفعة واحدة ويقعوا على منظر رهيب ، كانت السيدة ونيسة قد بترت أذنيها ووضعتهما على أعلى اللحاف الذي يتغطى به ابنها ، وتدور على شكل حلقات بالدم حوله قائلة بشكل نحيب رافعة كفيها إلى الأعلى : يارب ، إنه ابني الوحيد ، خذ عمري بدلا عنه ، يا رب اجعلني قربانا لبونجغ .
كانت تلك اللحظات هي الأخيرة والحاسمة بالنسبة لحياة بونجغ ، فقد طلع الضوء ، وحان موعد الفراق ، والأم شاحبة ينز العرق والدم منها ، تدور بجدية بالغة كأنها في حالة عبادة دون أن يجسر أحد الدنو منها ، وبونجغ يرقد وسط دوائر الدم والعرق .

عند سماع الأصوات المفزعة من الغرفة ، فتح بونجغ عينيه كأنه يفتحهما لأول مرة ليرى نفسه في ذاك المشهد ، عندذاك هدأت الأم وهي ترى عينيه المفتوحتين لأول مرة منذ أسبوع ، جمدت في أرضها وهي تنظر إليه ، ثم بعد لحظات خارت على ركبتيها وهي تنظر إليه مبتسمة ، ثم ما لبثت أن زحفت وطبعت قبلتين على خديه ناسية ما هي به ، كما نسي الجميع ماهي به وهم ينظرون إلى بونجغ الذي تحرك قليلا وما لبث أن نهض من الفراش كأنه ليس مريضا وبدأت العافية تعود إلى سحنته ، نسوا الجميع أمر الأم تماما لينشغلوا بما طرأ على بونجغ من تغيير مباغت .

وقف بونجغ على قدميه قائلا بأنه لايشعر بأي أعراض مرضية ، ثم طلب كأس ماء من أخته الصغرى لأنه يشعر بعطش شديد .

عندذاك رفعت السيدة ونيسة يديها إلى السماء قائلة : يارب لاتحرمني من رؤية بونجغ بعد أن عافيته .

## سر الخرزة الزرقاء

عند الساعة العاشرة صباحا انطلقتُ مع زوجتي وابنتي إلى قرية / الحدادية / التي تبعد ثلاث ساعات في البا ص الذي يعمل على الخط المؤدي إلى القرية ، فمند سنة تقول زوجتي بأن صديقتها الحميمة / سيدرا / المتزوجة في تلك القرية أنجبت طفلا و تلح عليها كي نقوم بزيارة عائلية إليها ، وأيضا كي نبارك لها ولادة ابنها الأول ، وتقول بأنها كانت تنتظر أن نزورها عندما تزوجت ، بيد أننا قصرنا في هذا الواجب .
وأذكر أنها منذ ستة شهور قامت مع أمها بزيارة مفاجئة إلينا مساء ، يومها قالت بأنها فضلت أن تترك الزيارة مفاجئة كي يكون لها وقعها الخاص ، وقالت بأنها حاليا في زيارة لمدة أسبوع لبيت أهلها ، وأن زوجها بقي في القرية للعناية بالمسمكة .

اتفقنا أن نقضي اليوم كله في القرية ونعود صباح الغد ، وقد شاءت الظروف أن تكون هذه الزيارة في السادس من شهر آذار وهي فرصة لمشاهدة الربيع الطلق في طبيعة تلك القرية .
لدى وصولنا إلى القرية تعرفت بـ / نسيب / زوج صديقة زوجتي الذي أراه لأول مرة ، وهو رجل يميل إلى الوقار والجدية في نحو الأربعين من عمره يعمل في المسمكة التي أنشأها في هذه القرية ويتولى مع

زوجته أمر العناية بها ، فهما يقومان بتربية الأسماك وبيعها إلى تجار المدينة الذين يأتون بين حين وآخر بسيارات خاصة لهذا الغرض .
عند المساء دعانا نسيب إلى زيارة عائلية لشخص يدعى / شمّام / الذي يسكن مع أخته وأخيه في بيت منعزل عن الناس يقع غرب القرية ، وهم يعيشون حياتهم في شبه عزلة عن الناس . الأخ الأكبر هو شمام الذي بلغ الخمسين من عمره وتصغره أخته بسنتين ويصغرها الأخ الثاني بثلاث سنوات .
وشمام هو الوحيد الذي يعمل في ملء بوابير الغاز الصغيرة من الجرات الكبيرة في البيت نفسه ويتوافد إليه الناس من القرية نفسها ومن بعض القرى المجاورة ، وهو شخص عُرف عنه بأنه لا ينظر في المرآة لسبب يجهله الناس ولكن البعض يجتهد ليقول بأنه قد قام بفعل شائن ويخجل أن ينظر إلى نفسه في المرآة .
أما أخته / شوقية / فقد عُرف عنها بأنها ترتدي ثياب الرجال أحيانا وعندما ترى فتاة تمشي بمفردها في القرية ، فإنها تهجم عليها فيظن الناس بأن رجلا قد هجم على امرأة ، وعندما يتدخلون يكتشفون بأنها شوقية .
وأحيانا تنزل إلى المدينة خلسة وهي ترتدي ثياب الرجال وعندما ترى امرأة وحدها في محل ما فإنها تدخل المحل وتغلق الباب وتهجم عليها فتصرخ المرأة ويجتمع الناس وعند ذاك يُكتشف بأنها امرأة فيتركوها وهم يقولون ( كان الله في عونها ) ، وهناك أحداث كثير يرويها سكان القرية كما يرويها بعض أهل المدينة ، حتى أن بعضها وصلت إلى المخافر ولكن كانت شوقية تعود فور معرفتهم بأنها امرأة بلهاء .
أما الأخ الثاني المعروف بـ / كيكي / فهو لا يخرج من البيت إلا نادرا ، وعندما يرى جمعا من الناس في القرية ، يدنو منهم وهو يحدّق في الوجوه وجها وجها ، وما يلبث أن يتقدم من وجه عن غفلة ويطلق عليه صفعة بكل ما أوتي من قوة .

ينتفض المصفوع ويبتعد عن الجمع لأن منظر / كيكي / يوحي بأنه تحول إلى شخص متوحش سوف يفتك به ، ويفتك بأي شخص يدنو إليه ، لكنه يكتفي بذلك ويعود إلى البيت ، يلبث وقتا إلى أن يقول لأخيه أولأخته بأن كفه تحكّ وقد حنّت إلى صفعة ، وعندما يسأله الناس عن سبب ذلك فإنه يقول بأن المصفوع يمكن أن يجيبهم عن ذلك ، فهو يعرف سبب هذه الصفعة ولذلك يتلقاها وهو صامت .

يقول بأنه يشعر شعورا سحريا بأن خد شخص ما وسط عشرات الأشخاص تجذب كفه إليه وهو يدخل في حالة هستيرية في تلك اللحظات لا يعرف كيف يتقدم ويقوم بهذا الفعل ، لكنه بعد نحو ربع ساعة يكتشف ما قام به ويكون الأمر قد مضى .

لذلك عندما يظهر / كيكي / بالقرب من أي شخص فإنه يبتعد خشية من أن يتلقى منه صفعة مباغتة ، وعندما يمشي في طرقات القرية فإن كل الأنظار من بعيد ترقبه ، لكنه بذات الوقت معروف بأنه لا يفعل ذلك مع مَن يدخل بيته سواء لملء الغاز أو لغرض آخر .

هذا الحديث جذبني بأن أرى هؤلاء الأشخاص وأن أتعرف إليهم عن قرب فانطلقنا نحو البيت الذي يقع على بعد نحو نصف ساعة سيرا على الأقدام خاصة بعد أن قال لي نسيب بأن سبب الزيارة هو تقديم التهنئة والتبريك لـ / شمام / الذي تزوج للمرة الثالثة خلال سنة واحدة ، فقد تزوج هذا الشخص منذ نحو سنة عندما جاءت إليه امرأة عجوز مع ابنتها من قرية مجاورة حتى يملأ ببورها الصغير ، ولا أحد يعرف ماذا حدث حتى علم سكان القرية بأن شمام قد تزوج بتلك الفتاة .

لقد تزوج لأول مرة بعد عزوبية دامت خمسين سنة ، ولكن بعد شهر واحد انفجرت جرة الغاز بيد المرأة عندما كانت تطبخ ، وأصيبت بحالة من الشلل غدت على إثرها طريحة الفراش ، و يبدو أن باب الزواج انفتح أمام شمام ، فقد طرحت عليه امرأة أخرى من ذات القرية بأن تزوجه ابنتها المطلقة بعد أن علمت
بالحادث .

هنا أخبر شمام زوجته بنية الزواج ، وبعد تردد وأمام عناده اضطرت المرأة بالموافقة مشترطة عليه أن يبقى يحبها أكثر من الزوجة الثانية ، وأن يعلن لها ذلك بين الحين والآخر ،فوعدها شمام بأنه سوف يكون كما تشاء .
ولكن عندما ذهب شمام خاطبا زوجته الثانية ، فوجئ بأنها تطلب ما طلبته زوجته الأولى : أنا موافقة يا شمام أن أتزوج على ضرة ، بشرط أن تحبني أكثر منها ، وتعلن بين حين وآخر بأنك تحبني أكثر منها ، فإن قبلت هذا كنت زوجة لك ، وإن لم تقبل فأنت حر .
لم يكن أمام شمّام إلاّ أن يوافق حتى تقبل الزواج منه .
أضاف نسيب ونحن نقترب بخطواتنا من البيت : لكنه رجل نحس يا صديقي ، فبعد ثلاثة شهور من الزواج زلت قدم المرأة وسقطت من أعلى السطح بينما كانت تنشر الغسيل مما أدى إلى كسر عمودها الفقري لتلازم الفراش جوار ضرتها .
وصلنا البيت ، واتجهت النسوة إلى غرفة استقبال النساء .
جلسنا في غرفته التي بدت فيها لمسات الترتيب ، وكانت فرصة لأنظر إلى أخيه كيكي ، وأتبادل معه أطراف الحديث ، وأنظر إلى كفه التي طالما صفعت أناسا .
عندما تحدث لي شمّام عنه تخيلته رجلا عاصفا ، بيد أن الواقع كان خلاف ذلك ، فهو رجل وديع هادئ ، لا يتفوه بكلمة قبل أن يتلقى سؤالا ، وهو حتى قبل أن يجيب ينظر إلى السائل بإمعان حتى يظن بأنه اكتفى بالنظر ، بيد أن الجواب يأتي بشكل مفاجئ ومتأخر ، وبعد أن ينهي حديثه يضيف : العقل الخفيف عبء على صاحبه .
بعد نحو نصف ساعة من جلوسنا سألنا كيكي عما نود شربه ، فطلبنا قهوة .
استأذننا بالخروج وهو يهز رأسه ويتمتم : العقل الخفيف عبء على صاحبه . فكانت فرصة لأتعرف على شخصية شمّام عن قرب ، وأعرف

منه شخصيا قصة زواجه الثالث ، وكيف أنه نجح في أن يجمع بين ثلاث نسوة في بيت واحد .
فال شمّام وهو يبدي سعادة لمعرفته بي : سأفشي لكما سرا لم أكن أعلمه طوال خمسين سنة من عمري ، ذاك العمر الذي أمضيته في عزوبية لاأعرف فيه شيئا عن عالم النساء ، ولكن سنة واحدة علمتني ما لم أتعلمه في خمسين سنة .
لاتظنوا أن الرجل يمكن له أن يتعرف على المرأة بشكل جيد قبل أن يتزوجها ، إنه لا يعرفها في أمه ، لا يعرفها في أخوته ، لا يعرفها في أي امرأة قريبة أو بعيدة عنه . إنه لا يتعرف إلى المرأة إلاّ عندما يتزوجها ، وعندذاك فقط يتعرف على أمه أكثر ، وعلى أخواته ، وعلى سائر النساء القريبات ، وسواهن من غير
القريبات .
ثم ضرب كفه على الأرض قائلا بحزم وهو ينظر إلى نسيب : الزواج هو مفتاح معرفة المرأة معرفة حقة ،
ثم أردف وهو يرفع كفه ويضعها في باطن الأخرى : بعد إصابة زوجتي الثانية بستة شهور ذهبت إلى ذات القرية التي تزوجت فيها مرتين ، ولي معرفة بأهلها . جلست في إحدى البيوت وقلت بأنني أريد الزواج .
بقيت أسبوعا أختار زوجة جديدة تناسبني ، وعندها توقعت ما قالته لي ، قالت : أريدك يا شمّام أن تحبني أكثر من زوجتيك السابقتين .
قلت لها : ستكونين الزوجة الأحب والأقرب إلى قلبي ، وإلا لما اخترتك للزواج
قالت : أريدك أن تعلن هذا الحب أمامهما بحضوري دوما .
ووافقتها على ما طلبت .
صمت قليلا عندما دخل كيكي حاملا القهوة ، مّد السفرة فتناول كل واحد منا فنجانه ، ولا أعرف أي نظرة تسربت من طرفي عينيه إلى أخيه الذي كان في وضعية نصف جلسة ، فنهض دون أن يجلس وخرج .

عندها مض شمّام قائلا : يوم الزفاف الذي كان منذ أسبوع ، فكرت طويلا إلى أن بلغنا وجه الفجر ، عندها رأيت زوجتي الجديدة نائمة ، فنهضت متجها إلى زوجتي الأولى ، أيقظتها من النوم ، طبعت قبلة على خدها ، ثم قلت لها : حبي لك هو الذي جعلني أترك فراشي في هذا الوقت .
ابتسمت وهي تنظر إلي ، فأعطيتها خرزة زرقاء وأوصيتها ألا ّ تخبر ضرتيها بأمر هذه الخرزة لأنها سوف تكون السر الذي تعلم من خلاله بأنها الأحب والأقرب إلى قلبي .
ثم اتجهت إلى زوجتي الثانية وقلت لها ما قلت للأولى وأعطيتها كذلك خرزة زرقاء موصيا إياها أن تدعها طي الكتمان .
عدت إلى زوجتي الأولى ، أيقظتها وقلت لها ما قلت لضرتيها ، ثم أعطيتها كذلك خرزة زرقاء موصيا إياها ذات التوصية وموجها لها ذات الحذر .
عند الظهيرة جمعتهن على الغداء وقلت : صحيح أنني متزوج ثلاث نساء ، ولكن هناك زوجة واحدة هي الأقرب والأحب إلى قلبي .
باتت كل واحدة تنظر إلى الأخرى ، ثم نظرن إليّ منتظرات ما سأقوله .
قلت وأنا أوزع نظراتي بين ثلاثتهن : إنها صاحبة الخرزة الزرقاء .

**نظرات مريبـــة**

بينما كانت الطالبة تنظر إلى لائحات موضوعة على واجهات المحال في الشارع الساكن ساعة الصباح الأولى، وقع نظرها على لائحة كـُتب عليها: مكتب خدمات كمبيوتر.
وجهت خطواتها نحو باب المكتب المفتوح فسمعت صوتاً يدعوها من الداخل: تفضلي.. صباح الخير.
عند دخولها لمحتْ شخصاً وسيماً يوحي مظهره إنه في الثلاثين من العمر ، ينهض من خلف جهاز كمبيوتر ويقول: أهلاً وسهلاً.
قالت: لو سمحت، لدي رسالة، أريد أن تدققها لي لأرسلها إلى السيد وزير التربية، لكن أريدك أن تعدل من صيغتها.
قال: وما مضمونها؟
- : شكوى.
هز رأسه بالإيجاب وجلس خلف الجهاز.
قالت الفتاة: عموماً لن أتعبك، أنا لم أنم ليلة البارحة لأني سهرت على كتابة مسودتها حتى طلوع الضوء فأرجو أن تعدل فيها وتدققها لي بشكل جيد كي أعطيها لأحد جيراننا ، وهو عضو في مجلس الشعب ليأخذها إلى السيد وزير التربية.
في تلك اللحظات أخذ يتأملها وهي تحاول إخراج المسودة من حقيبتها المدرسية السوداء.
كانت ترتدي بدلة زرقاء تشير بأنها طالبة معهد، تغطي شعرها بحجاب ناصع البياض يمنح وجهها الأبيض شكلاً دائرياً مشرقاً .

عيناها السوداوان تبدوان كلؤلؤتين تزيدان الوجه المضيء إشراقاً.
غدا يتأمل جسدها الممتلئ المتناسق مع القامة الوسطى الذي أعطى بريقاً لدخولها.
كل ما ترتديه منسجم في موضعه يأخذ بريقاً هائلاً منه ويضفي عليه بريقاً بديعاً، من ساعة اليد، إلى الحجاب ، إلى الحقيبة، إلى البدلة، إلى الحذاء.
بدت الملبوسات أمام ناظريه تهندس موضعها وتتهندس منه في ذات الوقت بأناقة ولباقة فائقتين، ولبث لا ينتظر أن تُخرج المسودة، بل ليتعمق تأمله في هذه الفتاة الفتية التي ظهرت كحمامة لتحط جواره هذا الصباح وتفضي إليه بسر من
أسرارها .
هذا الشعور أضفى حرارة على جسده رغم برودة الطقس.
لكنها قاطعت تأمله وهي تبرز ورقتين مليئتين بالسطور وتقول: حتى لا أتأخر، سأملي عليك ما كتبت وأنت ستدق وفي ذات الوقت ستعدل ما تراه .

- كما تريدين.

عندها انتبهت إلى كرسي صغير بجانب الطاولة، فجلست وهي تقول: هل أنت جاهز؟
قال بعد أن وضع في أعلى الصفحة الجهة، ومن ثم اسم الطالبة وعنوانها: تفضلي

- : السيد وزير التربية،،

تحية تربوية من طالبة إلى وزيرها وهي تأمل أن يمد يد العون لها حفاظاً على مستقبلها الدراسي.
سيدي: منذ يومين دخل مدرس مادة الهندسة شعبتنا وكفه اليمنى مغلقة ، فاستغربنا للأمر إذ أنها المرة الأولى التي يفعلها، وبدل أن يتجه إلى اللوح ليرسم أشكالاً هندسية للدرس الجديد، بدل ذلك اتجه إلينا وقال: اليوم درسكم في يدي !!

بهتنا لذلك ولأن شعبتنا مختلطة فقد قال أحد الطلاب بدهشة نيابة عنا جميعاً: كيف أستاذ؟
نظر الأستاذ إليه، ثم وزع نظراته على وجوهنا جميعاً والكلمات تخرج من فيه: أمسك بكفي التي في بشكل هندسي.. احزروا ما هو؟ ثم صمت قليلاً وهو يبتسم وأردف: سأسهل عليكم الإجابة.. إنه شكل طويل.
وصمت مرة أخرى. قال طالب: مسبحة أستاذ.
نفى ذلك بواسطة رفع حاجبيه دون أن يتكلم. إصبع طبشور أستاذ. قذفها طالب آخر مسرعاً. وتلقى ذات النفي بخيبة من الأستاذ الذي أوحى له بذلك من خلال هزات رأسه. قالت طالبة: أعطنا معلومة أخرى عن هذا الشكل أستاذ. أجاب والبسمة تملأ وجهه: قلت لكم بأنه طويل ولونه يميل إلى الأحمر الفاتح منه إلى الصفر .
قال طالب : فرجار أستاذ . ولحقه آخر بصوته : قلم تلوين أستاذ .
- : كلا..كلا..كلا .
قالها الأستاذ بإصرار والابتسامة ما تزال تزداد اتساعاً في وجهه ثم لفظ: وأيضاً أضيف بأنه يرتدي قبعة حمراء.
هذه المعلومة الأخيرة فجرت الموقف فالتزمت الطالبات الصمت وكأن إبريقاً من الماء البارد سكب على كل واحدة منهن، تعالت وشوشات فيما بين الطلاب بين راغب في قول الإجابة وبين زاجر له احتراماً لوجود طالبات. ويبدو أن أحدهم نهض بالفعل طالباً من الأستاذ الإذن بقولها، فلم أحتمل هذه المهزلة في الصف ونهضت تاركة مقعدي متجهة صوب الباب وبينما كنت أمد يدي إلى المقبض لأخرج، انفجر صوته كالرصاص وسمّرني في مكاني، إذ كيف سمحت لنفسي مقاطعة الدرس والخروج بهذه الفوضوية، لا أدري لماذا أحس بأنني أهنته، مع أنني وجميع الطالبات أحسسن بأنه أهاننا،ولكن ربما لم يتشجعن للتعبير عن استيائهن أو لأمر آخر.
عند ذاك فوجئنا معاً أن الأستاذ يفتح كفه، وإذ بعود ثقاب كبريت، فضحك الطلاب جميعاً شباباً وبناتاً، بينما استبد بي خجل غريب فلا أنا

قادرة على مد خطوة نحو الباب للخروج، ولا على مد خطوة نحو العودة إلى مقعدي، لم يبق أمامي غير أن أقدم اعتذاري الشديد للأستاذ على سوء ظني به.
إلى هنا يا سيدي الوزير ،لا توجد مشكلة، لكن الذي دفعني إلى كتابة هذا الطلب لسيادتكم هو أن أستاذي دخل في اليوم التالي كذلك شعبتنا في درسه، ويده مرة أخرى محكمة . والغريب في الأمر أنه أعاد السؤال علينا كرة أخرى قبل أن يشرع في إعطاء الدرس، فلم أنهض. قالت طالبة مجيبة عن سؤاله وهي واثقة من نفسها: إنه عود ثقاب كبريت يا أستاذ.
واستبدت بنا جميعاً دهشة عندما نفى الأستاذ هذا الجواب.. أظنني أطلت عليك يا سيادة الوزير، ولكن مستقبلي كله يتوقف على هذا الطلب، ولا أخفي إذا قلت لك منذ الساعة الرابعة مساءً أغلقت باب حجرتي على نفسي وبدأت في البحث عن صيغة ملائمة لأخاطبك بها ولو استطعت أن تنظر إلي الآن لرأيتني أقبع بين تل من أوراق وضوء الفجر بدأ يطل من خلف زجاج نافذتي وأعيد كتابة الخطاب للمرة الثلاثين.
أجل، يا سيدي الوزير، فلم تكن إجابة زميلتي بالإجابة الصحيحة وعندها لم ينتظر الأستاذ أي إجابة أخرى، بل راح " يتملاني " بنظرات مريبة..
أجل يا سيدي الوزير- " يتملاني " فحسب من دون جميع الطلاب والطالبات- وراح يفتح كفه بشكل لا تتصوره يا سيدي كم استفزني، وإذ بالكف فارغة لا شيء فيها، وليته اكتفى بذلك، بل زاد في استفزازي وهو يقول بقسوة لم تقع علي من قبل: لقد كان في كفي ما قصدته الآنسة يوم البارحة.
ولم أعد قادرة على الجلوس كأن شيئاً لم يحدث، فنهضت ولا أخفيك بأن رغبة جامحة اشتعلت في داخلي لأقف أمامه أصفعه أمام الطلاب جميعاً وأقول له عبارة واحدة يمكن أن تخفف من توتري ، ولكنني لم أفعل، اكتفيت بالخروج وتوجيه هذا الخطاب لسيادتكم راجية أن تتكرموا بالموافقة على نقلي إلى معهد آخر، أو نقل الأستاذ، لأنني لا أتصور أي

استيعاب لدرس سيلقيه علينا بعد هذين الموقفين، وفي حال رفض سيادتكم فإنني سأمتنع عن مواصلة دراستي وسيكون الوطن قد خسر مستقبل أحد أبنائه.

**الصفعـــــة**

لـم نكـن نصـدق أن الـذي حـدث ورأينـاه أمامنـا رأي العـين سـوف يقـع بالفعل في مكان عام كهذا وعلى مرآة من الناس الذين يجلسون فـي بـاص

النقل الداخلي ، فعند الثامنة صباحا كنا سبعة أشخاص ننتظر قدوم الباص ليأخذنا إلى سوق المدينة .
الطقس حار رغم الفترة الصباحية ، ويوحي بنهار شديد الحرارة كما هو معتاد في هذه المنطقة التي تكون أكثر مناطق البلاد حرارة بامتياز في فصل الصيف ، وأكثرها برودة في الشتاء .
انتظرنا نحو عشر دقائق بظل واقية محل مجاور للموقف إلى أن تراءى لنا الباص كطيف من بداية الشارع .
تركنا الواقية رجالا ونساء وترجلنا إلى الرصيف الذي سيقف الباص بمحاذاته .
صعدنا واحدا تلو الآخر وكأننا نؤدي واجبا اجتماعيا ، ومكثنا في مقاعدنا حتى امتلأت غالبية المقاعد ليتحرك جسد الباص صوب سوق المدينة .
في أثناء استدارة الباص ليأخذ مسارالعودة إلى المدينة سمعنا صفيرا مدويا يصدر من فم شخص يلوّح بيده وهو يهرول ..
تمهّل السائق ليلتحق الرجل بالحافلة ، وبعد لحظات قذف جسده من الباب وجلس في المقعد الأول الذي يقع محاذاة الباب الأمامي .
كان شخصا في نحو الخامسة والأربعين من عمره ، يرتدي بدلة رسمية رثة بعض الشيء ، ذا سحنة حمراء محتقنة ، وشعر مجعد خشن نصفه أبيض ونصفه أسود ، يضع على أنفه نظارة طبية كبيرة تبدو كأنها قطعة أثرية .

بعد هنيهة من سير الباص ، لاندري كيف وقع نظره على شخص يجلس في مقعد مزدوج من الرتل الثاني وسط الباص ، وبحركة ملفتة للجميع لوّ ح بكفه للشخص الذي بدا يماثله في العمر ، وكانت تبدو على وجهه معالم الغنى قائلا بصوت بلغ أسماع جميع الركاب : كيف حالك أستاذ عبادة ؟
رفع الشخص كفه بمشقة إشارة بالرد على السلام دون أن يصدر منه أي

صوت .
بعد قليل التفت إليه مرة أخرى قائلا بذات الصوت المتصاعد : هل مازالت شهباء في بيت أهلها ؟
نظرنا جميعا إليه وقد بدا لنا أن شهباء هي زوجته .
احمرت وجنتا الرجل وهو يتمتم بألفاظ خافتة والسائل مايزال ينظر إليه منتظرا الإجابة ، ولمّا طال انتظاره بعض الشيء عاد وكرر بذات اللهجة : أسمعتني ياأستاذ عبادة ؟
رفع الرجل نظرة مستاءة إليه هازاً رأسه نحو الأسفل عدة هزات .
أردف الشخص وهو يلتفت إليه نصف التفاتة هذه المرة : ياأخي عندما يقع الإنسان ، لاأحد يعينه .
صمت قليلا ومد يده إلى جيبه مخرجا علبة دخان ، لكنه انتبه بأنه في باص ممنوع فيه التدخين ، فأطلق ضحكة غريبة وهو ينظر إلى السائق ، ثم إلى الركاب قائلا : والله ظننت بأنني أجلس في بيت الأستاذ عبادة ، لاتؤاخذوني ياجماعة .
وأعاد علبة الدخان إلى جيبه ، ثم عاد ينظر إلى ذات الشخص وقد وقال بذات النبرة : البارحة رآني جارك السمان / قفقف / في سوق الهال - والرجل مايزال يهز رأسه نحو الأسفل - : قال لي بأنه منذ سنتين يطالبك بقيمة سمانة أخذتها شهباء من الدكان .
لم تكن هناك يا أستاذ ، لكن ملائكتك كانت هناك ، وبخته وقلت : تعرف ياقفقف أن الأستاذ فُصل من وظيفته بعد أن أمضى سنتين في السجن ظلما وعدوانا بسبب تلك التهمة التي هو براء منها ، إنه لايملك الآن قيمة رغيف خبز ، والجيران أحيانا يرسلون له الطعام بعد أن بقي وحده في البيت الذي سمعنا أنه مسجل باسم زوجته .. ثم بدأ يوزع نظراته علينا جميعا ويردف كأنه يوجه الكلام لنا : قاطعني هذا السمان الذي لاحياء لديه قائلا : أنت صادق ، وهي بعد أن ذهبت إلى بيت أهلها تطالبه بالخروج من البيت .

قلت له والله على ما أقول شهيد : مادمت تعرف ما حل بالأستاذ ياظالم كيف تأتي وتطالبه بالدَين في الوقت الذي عليك أن تعرض عليه أن يأخذ من دكانك إلى أن يفرجها عليه الله ، ألا تحسب أن الدولة قد تعود ذات يوم إلى الأستاذ عندما تظهر الحقيقة ، وعندئذ قد تعينه وزيرا كرد اعتبار لما لحقه من ضرر مادي ومعنوي .
ثم التفت إلى الشخص موجها كلامه إليه كأن لاأحد غيرهما في الباص :
يشهد الله أنني يا أستاذ قلت له مدافعا عنك : مثل الأستاذ يحتاج أن يعطيه الناس في سبيل الله بعد الكارثة التي حلّت عليه لاأن يطالبوه بديونهم .

نظرنا جميعا بعيون جاحظة إلى الرجل الذي بدا يكظم غيظه وكأنه في حالة صراع حادة بينه وبين نفسه في سبيل إيجاد طريقة لإسكات هذا الرجل بأي طريقة كانت ، ومهما كلفه ذلك من ثمن .
بعد دقيقة واحدة من الصمت عاد والتفت إليه بشكل جيد هذه المرة وهو يشير برفع سبابته : مادمنا نتحدث ونتسلى حتى نصل السوق لابد من أن أقول لك واقعة وقعت معي ..
أشار له الرجل بكفه ليخفض صوته أو يصمت ، بيد أنه واصل في الحديث
قائلا : لا يا أستاذ عبادة ، الساكت عن الحق شيطان أخرس ، أريد أن أضع لك النقاط على الحروف حتى تعرف عدوك من صديقك ، أجل ، في الشهر الماضي احتجت إلى بعض الحاجات للبيت ، فنصحني جاري أن أذهب إلى المزاد لعلي أرى بضاعة نظيفة بسعر معقول .
ثم أضاف وهو يخفت نبراته استجابة لحركات يد الشخص : بيني وبينك أنا متأزم ماليا هذه الفترة بعد الذي حصل وأخذ أخوتي كل أملاك أبي دون أن يعطونني شيئا .
تصور يا أستاذ عبادة قلت لهم : أنا في هذا العمر ولم أستطع الزواج حتى الآن بسبب ضيق يدي ،أعطوني شيئا حتى أتزوج به .

ثم عاد ونظر إلينا جميعا يتحدث بصيغة جماعية : تصوروا ياجماعة ، نحن الآن لانعرف بعضنا البعض ، ولا أحد منكم يعلم ما الذي سأقوله الآن ، تصوروا بأن أخوتي رفضوا إعطائي قرشا واحدا ، وعندما تقدمت بشكوى قضائية عليهم ، ادعوا بأنني لست أخا لهم .
ثم غار في ضحك عميق مجلجل وهو يضيف : ادّعوا أن أبي اشتراني من إحدى خيم الغجر وتبناني ؟ !
دوى الباص بضحك صدر من البعض ، فالتفت الرجل إلى ذات الشخص قائلا : ماعلينا أستاذ عبادة ، نرجع لموضوعنا ، المهم أنني رأيت هناك تلفزيونا وبرادا ومكيفا ، يشهد الله رغم أنها كانت بأسعار زهيدة ، رفضت شراءها وأنا أقول للرجال هناك : إيه يازمن . . لو علمتم مَن هو صاحب هذه الأغراض ، لما صدقتم .
كنت أردد بيني وبين نفسي : بأي عين سوف أنظر إلى أغراض أخي عبادة وهي في بيتي .
لم يعد الرجل قادرا على إخفاء التوتر الذي بدا يعلوه وسط أنظار الناس ، بل وحتى أنظار السائق الذي يرمقه بين حين وحين من طرف المرآة وتفتر شفتاه عن بسمة يحاول أن يخفيها .
أحسسنا بأنه تحول إلى جرة غاز ممتلئة غدت على وشك الانفجار في أي لحظة .
وبغتة رأينا الرجل المحتقن ينهض ويتجه نحو الأمام حيث الرجل الذي مايزا ل تواصل في كلامه .
عندما رآه يدنو منه نهض هو الآخر من مقعده ليتقابلا وجها لوجه .
أشار الرجل المغتاظ الذي بدا أمام أنظارنا كبركان على وشك الانفجار إلى السائق بالوقوف ..
فرمل السائق بحركة سريعة جانب الطريق وغدا ينظر معنا إلى الشخصين .
أفرغ عبادة نظرات غاضبة كرصاص في وجه الرجل الواقف قبالته كمسمار ، وفي غفلة وقعت كفه بكل قوة في صفعة شرارية على وجه

الرجل وكأنها ضربة صاعقة تاركا إياه جامدا في موضعه كأنه في حالة استعداد ، أفرغ في وجهه نظرات محتقنة أخرى دون أن يلتفت إلى أحد منا ، ثم نزلت به خطواته بتؤدة كأن شيئا لم يكن .

**النداء**

تناهى صوت جارتي من خلف النافذة كهدير : يريدك الهاتف .
جعلني الصوت أثب من السرير بحركة سريعة غير منضبطة ،
ارتديت جلابية بحركة خاطفة وبعد أقل من دقيقة أصبحتُ في دكان جارتي الوحيدة في الحارة. لمحتُ السماعة معلقة، مددت كفي وأنا أقاوم حرارة تموز: ألو
تناهت نبرات خشنة من سماعة الهاتف معتذرة عن الاتصال في وقت غير مناسب ، ثم أردف صاحبها بصوت هادئ : آسف على الإزعاج أستاذ ، لكن يشرفنا حضورك في منزلنا الساعة السابعة والنصف اليوم .
حصرت ذاكرتي لتذكّر نبرات الصوت التي بدت قريبة من سمعي ، ويبدو أن صاحبه أراد أن يحسم عملية التذكر التي امتدت نحو دقيقة ، فتواصل الصوت : أنا حاجو يا رجل .. كيف تنسى حاجو ؟!
- لا لا لم أنس ولكن أنت تختفي .. هل تريد ترشيح نفسك لانتخابات البرلمان .
قهقه طويلاً بحشرجة حتى ظننت أنه سيكتفي ويضع السماعة بعد فراغه من القهقهة المجلجلة ، ولكنه واصل الكلام مع بقايا ضحك : لا هذه الشغلة تركناها للناشئين، بح صوتي وأنا أصرخ في الشوارع : يا ناس انتخبوني... لا تخيبوني .

لكن يا خسارة يا أستاذ ، لم تنجح جهودي .

أذكر منذ طفولتي أنني كنت أراك ترشح نفسك .. كنت تلصق صورك في سوق الهال ، وفي المنطقة الصناعية ، وفي الحارات الشعبية .

- يا أخي ست مرات تكفي ، لقد شبعنا ، لا أريد شيئاً ، تركت الناس لكنهم لا يدعونني بحال سبيلي ، يقولون لي: يا حاجو لو كان فيك خير لأدخلوك البرلمان .

حتى الآن عندما أدخل سوق الهال لأشتري خضاراً يقول لي السوقيون : ما رأيك أن نعطيك عربة دفش وتبيع خياراً يا حاجو أنت لك شعبية.

يا أستاذ دع الطابق مستوراً لا نريد أن نتبهدل عالتليفون .

* * *

في السابعة مساء خرجت من البيت واتجهت صوب دار حاجو الذي لي معرفة قديمة بموقعه .. أمضي دون أن اعرف السبب الذي أذهب من أجله إلى ذاك البيت .

دخلت شارعاً في الحي ، وبعد مسير عدة خطوات تذكرت أنه ليس شارع بيته فعادت بي قدماي وولجتا الشارع الذي يليه، مضتا بي بتمهل إلى أن أوصلاني إلى باب وتوقفتا بمحاذاته . ارتفعت عيناي إلى لوحة صغيرة كتب عليها : / هذا منزل الأستاذ حاجو / .

امتدت سبابتي وضغطتْ على الجرس ، وما لبث أن امتد وجه كأنه كان واقفا خلف الباب .

فور وقوع نظراتي على الوجه الأملس ، عانقني وبدأ يبادلني القبلات بحرارة، ثم بعد لحظات نظر في الشارع و أشار لي بيده أن أدخل فالجميع ينتظرني .
في خطوات الطريق إلى الغرفة نظر إلى ساعته متمتما : أنت دقيق في مواعيدك ، الساعة الآن السابعة والنصف إلا نصف دقيقة .
فتح باب غرفة أذكر أنني دخلتها قبل الآن مرتين ، مرة منذ خمس سنوات عندما رشح نفسه لانتخابات مجلس الشعب، ومرة منذ نحو سنتين عندما احترق السجن المركزي .
أذكر في أي ركن جلست في المرتين السابقتين فمن طبيعتي أن أعود إلى ذات الركن الذي ركنت فيه أول مرة لدى تكرار الزيارة إلى أي مكان خاص أو عام .

نهض جمع من الرجال فور دخولي ، اضطررت أن أصافحهم واحدا واحدا لأنهم نهضوا جميعا لدى رؤيتي .
كان عددهم يربو على الثلاثين بينهم خمس نساء ، ثلاث منهن متقدمات في السن ، وصبية عانس تقوم أحيانا بإلقاء كلمة في الاجتماعات التي يعقدها الحزب الذي تنتمي إليه ، كنت قد رأيتها نحو ثلاث مرات عندما كان أحد الأصدقاء يدعوني لمناسبة ما يحتفي بها حزبه ، وكان يرحب بي بحرارة كضيف شرف .
أما الخامسة فلم يسبق لي أن عرفتها ، وهي فتاة في نحو الخامسة والعشرين دميمة الوجه ، زائغة النظرات .
ركنت في ركني السابق الذي ارتحت فيه وبين دقيقة وأخرى يرن الجرس فينهض حاجو ويُدخل رجلاً أو رجلين ، أو رجلين وامرأة .
استمرت هذه العملية إلى مابعد الساعة الثامنة بنحو عشر دقائق ، عندئذ ارتسم الوجوم على الوجوه والمكان واستطعت أن أتعرف بالبعض خلال هذه الفترة من خلال سؤال عن الأحوال :
قدّور ، المحامي المتقاعد .

سالح ، اسمه سالح وليس صالح ، هكذا ورد في بطاقته الشخصية ، وهو طبيب بيطري موظف لدى مديرية الصحة الحيوانية .
فريد وهو فنان تشكيلي فاشل بلغ الخامسة والخمسين ولا أحد يعرفه في مدينته ، وكل سنة يعطف عليه المركز الثقافي ويقيم له معرضاً في إحدى المناسبات .

جلس حاجو على ركبتيه جانب العتبة ، ألقى نظرة فاحصة في الوجوه أراد بها أن يتأكد من وجود البعض لأنه رفع كفه فور رؤيتهم وما لبث أن دخل في الموضوع مباشرة دون أي تمهيد :
الموضوع لم يعد يحتمل تأجيل لحظة واحدة، منذ خمس سنوات والجلطة تفتك بنا فتكاً .
في هذا الشهر قتلت عشرة أشخاص في حينا فقط ، لابد أن نعرف قصة هذا الغزو ؟!
تحرك سالح الطبيب البيطري من مكانه وأعدل في جلسته :
الغزو لم يقتصر على الإنسان ، امتد إلى البهائم والفئران والأبقار والقطط أيضا ، كل يوم نكتشف حيوانات تصاب بالجلطة ويمكن لأي مرب أن ينهض صباحاً ويرى خروفاً أو خروفين نفقا ، فيحتار قائلاً لنا : الخراف كانت ترعى بعافية حتى ليلة البارحة .
وهذا صحيح يا رفاقي لأنها ماتت بالجلطة.
هتف صوت أنثوي بشكل مباغت: يقولون أن السمنة والجبنة والزبدة المستوردة من تركيا هي السبب.
أجاب صوت آخر بألم : أو هذا الفروج الزنخ وبيضه وجلده الذي لا طعم له الذي غزانا ولا نستطيع غير أن نفتح له معدنا.
وهمهم فريد: لكن لا تنسوا الفترة التي ظهرت فيها الجلطة بظهور مياه السد .
قال حاجو: يا أخي شغلة تحير ، الناس يمشون في الشوارع وأيديهم على قلوبهم ، أصواتهم خافتة تشعر بأن قلوبهم ملغومة، وجوههم عابسة

يحكون كأنهم ينشجون، عيونهم تدمع، عيادات الأطباء مليئة بالمرضى ، المشافي ملأت المدينة ، حلت مكان السينمات، أصوات الإسعاف لا تغيب عن أسماعنا، مشاف ومرضى ، عيادات، ممرضات ، صيدليات ، أصوات إسعاف في الطرقات .

كل هذه المظاهر حلت بدل المسارح وصالات السينما والحدائق والمسابح ومدن الملاهي والألعاب البهلوانية، لقد تمردنا على قاعدة الجلطة فأصبحنا نصاب بها في الثلاثين والأربعين، والمناضل يصمد إلى الخمسين ، وعلى الأغلب يهرعون إلى العاصمة للعلاج فيقضون إمّا بطريق الذهاب أو في منتصف طريق العودة .

لو كنت عضواً في البرلمان لطرحت هذه القضية على المجلس ولأنقذتكم من هذه /الجلطة/ لكنكم لم تنتخبوني .

ثم استأنف وكأنه على منبر جماهيري : يا جماعة في السنوات الثلاث الأخيرة غزت الجلطة حسب الأسماء الثلاثية وتواريخ الولادة والوفاة واسم الأم والخانة الموجودة كلها لدي - وقد جمعتها بمساعدة أصدقاء أطباء - غزت أربعة آلاف رجل وسبعمائة امرأة ، وسأكشف لكم سراً لا تعرفونه وقد يفاجئكم فعدد المصابين بالجلطة الآن يفوق عدد غير المصابين - نحن لا نطلق نكتاً- نعيش مأساة مرعبة أخطر من مأساة مرض/ الإيدز/ فالإيدز قد يستغرق عشر سنوات حتى يقضي على المريض لكن /جلطتنا/ لا تمهلنا سنة واحدة على الأغلب ، نعني أن أكثر من نصف السكان سيكون تحت الأرض بعد سنة أو سنتين وسيورث هذا المرض لأولاده وأحفاده ، وبعد ذلك سيكون هذا النصف غير المصاب مصاباً.

لن أضيف كلمة أخرى لأن قلبي يؤلمني ، ولكن أقول لكم انتخبوني إذا رشحت نفسي مرة أخرى في الانتخابات التي تقترب وسأطرح هذه القضية في مجلس الشعب.

صمت الرجل ودام صمته دقائق فجاء صوت قدور ، المحامي المتقاعد كأنه يهبط من أعلى السلّم وقال: أنا يا سادة أعيد السبب إلى ظهور

الآبار الارتوازية في جزيرتنا، يا أخي شغلة تطيّر العقل من الأذنين ، منذ أن طلع الماء من جوف الأرض وصار الجوال يقذف خمسين جوالاً قامت القيامة، انقلبت الجزيرة بحجارتها وناسها وفئرانها. هذه الآبار ما تركت أخاً لأخ ولا قريباً لقريب ولا جاراً لجار ولا صديقاً لصديق .
كنا قبل لعنة هذه الآبار في طبقة متقاربة في هذا الحي أو غيره أو في تلك القرية وغيرها نعرف ما نأكل وما نشرب وما نصرف ، ننزل في السنة مرتين إلى السوق ونعود إلى قرانا . كان الجار يقضي شغل الجار بالعون المادي والعضلي، كان أي شاب يتزوج البنت التي يريدها بما يتيسر له من نقود، وكل رجل يستطيع أن يشتري قطعة أرض في قلب المدينة لكنه لم يفعل لأنه كان مكتفياً بمسكنه وقنوعاً بلقمته وصحته .
لم تكن هناك /جلطة/ لم يقتل رجل قريبه من أجل متر أرض، لم تذبح الناس بعضها بعضاً في طرقات المدينة وأمام أبواب المحاكم، منذ خمس سنوات حلت علينا لعنة الآبار الارتوازية ، سمعنا بأمور لم نسمعها من قبل ، تفككت طبقتنا المسالمة المتقاربة ، وفجأة رأينا أنفسنا ننفرز إلى طبقتين ، طبقة الأثرياء والبطرانين ، وطبقة صغار الكسبة والمسحوقين ، وكلما كثرت أموالهم ، سُحقنا وجعنا .
ركبوا السيارات ،
رفعوا أسعار السكن ،
رفعوا مهور النساء ،
إنهم يتزوجون كل موسم صبايانا الجميلات الصغيرات ونحن ننظر إليهم، رفعوا مهر المرأة إلى نصف مليون ليرة، قلنا : يا جماعة لم نأت من الخليج ونحن كيف سنزوّج أولادنا ، هذا المبلغ فوق خيالنا لأننا لانكاد نعيل أسرنا، هل تعرفون أن السكن عندنا صار أغلى من العاصمة، إنهم مجانين لا يعرفون ماذا يفعلون هم ليسوا مثل الخليجيين لأن الماء ليس مثل البترول .
احترنا في أمرهم وصرنا نلعن الآبار الارتوازية ومَن اكتشفها، كيف سنشتري بيوتاً لأولادنا، كيف سنزوجهم، لقد اكتشفنا بأننا وحدنا ضحية

هذه الآبار وكأن منشاراً نزل من السماء وقسم المجتمع نصفين ، ولا تنسوا لعنة /الأطنان/ الأجشع من الربا في استغلال الأخ لأخيه .
حتى أنا الذي لا أراضي لدي يجب أن أبيع أطناناً قبل أن تطلع حتى أستطيع أن أتعالج إذا مرضت .
لا أعرف أي قلوب حديدية في جوانحنا لتحتمل كل هذه الاستفزازات .
قال الفنان التشكيلي الفاشل : لكنهم مثلنا يصابون بها .
رد المحامي المتقاعد - موضحاً بأنه مدرك لذلك - : يصابون بها لأن الصدمة أصابتهم مثلنا كما ترى .. هم أيضاً في مرحلة انتقالية غير مستقرة ويفترسون بعضهم البعض ، وإذا نريد أن نتخلص من الفقر الذي فرضوه علينا ، فكل واحد منهم يريد أن يثرى أكثر من جاره ، يتبارزون للوصول إلى الثراء السريع ويتنازلون عن كل شيء جميل ونظيف كان لديهم ويمارسون التوحش بصورة أشرس من الوحوش ذاتها .
سمعنا عن الذي اقتتل مع ابن عمه من أجل الأرض فأصابته /الجلطة/ ولم يتمهل هذا الرجل أن تقتل الجلطة ابن عمه فذهب وقتله فور خروجه أمام رصيف المشفى، كلهم لديهم قضايا في المحاكم، ويستخدمون الرصاص عندما لا ترضيهم القرارات ، حتى داخل المحاكم أصبحوا على استعداد للتنازل عن أي شيء ليشتروا سيارة جديدة لا ليركبوها ويتنزهوا بها، بل ليستفزوا جيرانهم ومَن لا سيارات لديهم .
الانفتاح الاقتصادي عندما يدخل مدناً طيبة ، يزيد فيها المسارح والحدائق والسينمات والمسابح ، لكنه عندما يدخل مدينة مثل مديتنا يزيد فيها المشافي والعيادات والثكنات والمخافر.
لقد أنستنا لعنة الآبار أن نكتب قصيدة إلى امرأة جميلة، أو نستمع إلى الموسيقى، أنستنا التفاهم والحوار والتكاتف الإنساني، أصبحنا نتحدث بأسلوب الشجار، أصواتنا لم تعد مسالمة كما كانت، صارت تشبه عواء الكلاب.

دوى صوت خانق كالأنين : لنمت كلنا ونرتاح ،ربما يأتي ناس أحسن منا، أنا بالجلطة الآن وأعرف موتي القريب في أي حركة توتر ..
الأسبوع الماضي رجعت من الدكتور في العاصمة وقال لي : لا تتوتر في البيت .
رأيت الأبواب مكسرة ، أولاد الحرامية سرقوا التلفزيون والبراد وجرة الغاز وشقاء العمر.
وقال رجل ثلاثيني : كلما أضع عيني على صبية ، خطفها مزارع أو ابنه ، ودفع فيها أربعمائة ألف ليرة، نشف ريقي حتى وافقوا على إقراضي عشرين ألفاً من راتبي ، ولما ثقل قلبي في صدري قال لي الطبيب: / مقدمة للجلطة / وأعطاني مهدئات استخدمها كلما رأيت امرأة تئزف.
وجاء صوت آخر: لا نعرف لماذا أصبح لدى كل واحد هاجس هو أن يستفز غيره فقط ؟!
وتدخل حاجو بصوته ويديه قائلاً بتحشرج : نحن واجبنا أن ندفع لعنة الآبار ونقدر أن ندخل جميع البيوت لأننا أبناؤها .
همهم قدّور: يا أخي تضرب هذه البيوت.. لتنهدم كلها على رؤوسنا ويأتي مَن يبني بيوتاً جديدة، أخي سمها مقابر، الذي يموت يرتاح من كل هذا الموت الجهنمي الذي نراه كل يوم ، في القبر لا ترى من يستفزك ، منذ خمس سنوات لدي أمنية واحدة أن أضحك ضحكة واحدة من عمقي .
قال الطبيب البيطري سالح: اهدأ يا رجل .. على علمي أنت فهيم .
أجابه قدور وتكاد عيناه تدمعان : يا أخي عندما يأتيك الدخان تغمض عينك وترتاح ، لكن الدخان عندما يحمل السم يجبرك على الاختناق .
وفجأة انتفض الرجل الذي سُرقت أمتعة بيته ، وضع كفه على قلبه وسقط بعد مسير خطوتين .. هرعنا إليه فتحول إلى /خشبة/ وقد تسمرت حدقتاه في الأعلى.

اتصل حاجو بالهاتف طالباً الإسعاف في أقصى سرعة ..وبعد لحظات انتظار قلقة وضع قدور كفه على قلبه وأطلق ضحكة غريبة ، اعتلاه اصفرار وسقط ينتفض كخروف مذبوح للتو.
تركنا الرجل وهرعنا إلى قدور ، رأينا فريد يجلس ببطء على الأرض وقد وضع كفه على قلبه وبعد لحظات سلّم هو الآخر ، وبعد قليل لحقه رجل خمسيني .
وصلت سيارة الإسعاف بعد نحو ساعة من الاتصال ، لم تتمكن من حمل كل الأجساد دفعة واحدة الأمر الذي دفع حاجو ليتصل بسيارة أخرى ، عندئذ قيل له بأن كل السيارات خرجت إلى مهمات إسعاف .
اتصل بمكاتب التكسي ، وقيل بأن كل التكاسي خرجت للإسعاف السريع . أمام ذلك حملنا كل واحد رجلاً إلى الشارع ، امتلأت أسماعنا بصرخات النساء المنتشرة من النوافذ.
كانت ثمة جثث طريحة وسط الطريق وعلى الأرصفة وأناس يركضون بهلع صوب المجهول . عندئذ وضعنا الجثث التي على أكتافنا وهرعنا كل واحد في طريق صوب المجهول .. كنا فقط نهرب من الموت إلى أي مكان ، واتجهتُ إلى قلب المدينة.. أذهلني المنظر، الجثث تتكوم في الطرقات وعلى الأرصفة وفي الدكاكين ..تتساقط من الأبنية ومن السيارات العابرة ، وتعلو صافرات الإنذار والنجدة والإطفاء تصم الأسماع وأصوات متداخلة تنتشر من مكبرات الصوت والناس على شكل أفواج وحشود غير منضبطة تهرع تاركة المدينة والأكف على القلوب ، وبين مسافات ركض وأخرى ترتمي أجساد بين الأقدام فتدوسها غير آبهة بشيء غير الركض بأنفاس لاهثة .

## الطيـــــف

في الرابعة لحظات انبلاج الفجر الصقيعية- أواخر شهر كانون الأول أثناء عملية تبديل مناوبة الحراسة، لمح الحراس الأربعة ولأول مرة في وقت مستنفر كهذا طيفاً يلوح في مدخل الشارع المليء بمئات المصابيح والأضواء الكاشفة الذي يبلغ طوله نصف كيلو متر.. ولبث الحارسان اللذان تهيئا للخروج داخل المحرس إلى جانب الحارسين اللذين دخلا للتو ليحرسا من الرابعة حتى السادسة صباحاً.

لبثوا جميعاً ينظرون من نافذة المحرس الصغيرة إلى الطيف الذي تحول إلى رجل يتقدم إلى محرسهم .

رفع أحدهم مقدمة بارودته إلى النافذة واضعاً إصبعه على الزناد :

/ سأجعله ينتفض على الأرض مثل كلب / .

ومنعه زميله الذي يليه قائلاً : قد يكون أحد الزملاء العائدين من إجازة.. انتظر قليلاً.

وقال الحارس الآخر: هل يُعقل أنه جاء يفعل شيئاً أمام أعيننا ؟!.

أجاب حارس آخر: رجل مجنون... أو سكران اندفع إلينا دون أن يدري .. تعالوا نتمسخر به، سأناديه: / قف مكانك / وإلاّ أطلقنا النارَ عليك..

وعندما يقف يصيح أحدنا : اخلع ثيابك كلها كما ولدتك أمك ، وتقدم إلينا عارياً مرفوع اليدين أوعلى قدم واحدة.. وإلاّ سنطلق النار عليك.

وفجأة صمت الجميع في ذهول عندما توقف الشخص على بعد عشر خطوات من محرسهم، وقبل أن يمعنوا النظر فيه امتدّت النار من

أخمص قدميه إلى أعلى رأسه وانتفض واقعاً على الطريق والنيران تأكله.. حملوا البطانيات وهرعوا إليه.. تمكنوا من إطفاء النار بوضع البطانيات على كتلة النار رغم رفض مَنْ في النار ومحاولات التهرب ورفع البطانيات لإدخال الهواء .
بعد قليل صبّوا عليه ما لديهم من ماء، وصاروا يتبادلون نظرات الهلع دون أن ينبس أحدهم بحرف .. وكي ينتهوا من هذا السكون المطبق على وجوههم بين تأوهات الرجل المحروق المستلقي على الأرض ، والفجر الذي ينبلج للتو هرعوا إلى المحرس وأجروا اتصالاً من نوع الاتصالات الطارئة التي تشبه صافرات الإنذار، وبعد دقائق وقف رجال ببيجامات النوم قرب الرجل المحروق وأمروا بنقله إلى المشفى وهم يفركون عيونهم من آثار النوم.

بعد ستة أيام علاج في حراسة مشدّدة استطاع الرجل أن يتحدث ، عندئذ دخل ضابط وكاتب مَحاضر إليه وعندما رآهما الرجل تمتم : / أريد الموت / . ثم بعد صمت أضاف : / لماذا لا تدعونني أموت / .
وانحدرت دموع من عينيه ثم واصل : / أليس من حقي أن أختار طريقة ميتتي في اليوم الذي أشاء / .
وصمت مرة أخرى ثم عاد صوته الكسير يدوي : / كان من المفترض أن أكون ميتاً الآن / .
وأغمض عينيه.. نظر الضابط في كاتبه وبعد لحظات أعاد النظر في عيني الرجل المسبلتين وقال: لماذا تريد أن تموت بهذه الطريقة.. أي شيء تهدف خلف هذه الميتة؟
عندئذ فتح الرجل جفنيه وحكّ حاجبيه ينظر إلى الضابط ثم إلى كاتبه وتذكر الساعة الرابعة المشؤومة من فجر اليوم المشؤوم عندما صرخت زوجته : انهض يا رجل عقرب لدغت ابنتك.. وانتفض من الفراش.. خرج ببيجامة النوم طرق باب جاره.. أتى صوت : مَن.. ماذا تريد ؟ أجاب : أرجوكم.. الهاتف.. أتصل بالإسعاف.

عاد الصوت : الهاتف مقطوع لأسباب مالية .
ركض إلى البيت.. حمل ابنته الطفلة التي تبلغ السادسة وهرع بها تجاه المشفى الوطني.. بعد ساعة من الركض وصل إلى باب المشفى المغلق ، طرق الباب الحديدي بيد .. بعد لحظات ظهر رجل يفرّك عينيه وقبل أن يفتح الرجل فمه قال القادم : ممنوع يا سيد.. اطلب الإسعاف.. لن ندخلها إلاّ في سيارة الإسعاف.
قال: لا يوجد لدي هاتف.. أرجوك اتصل بهاتفك.. سأنتظر خروج السيارة لتُدخل ابنتي .
أجاب المناوب: اتصل بهاتف خارج المشفى.
قال: ولكنها تموت!!
أجابه وقد أدار ظهره: أنا أنفّذ التعليمات.
واختفى في غرفته الصغيرة التي تلي الباب.
انفجر منه صراخ : أرجوك.. افتح.. ابنتي تموت في حضني .
جاء الصوت : ليس ذنبي .
قال : تعال.. خذ ما تريد.. أنا أرجوك .
خرج الرجل مرة أخرى قائلاً : أنت تحرجني .
أمسك بيد ابنته ومدّ يده الأخرى إلى جيبه نوّ ل المناوب أوراقاً نقدية..
تناولها المناوب من فراغات الباب الحديدي الضخم قائلاً: يا أخي أنت تضطرني لمخالفة التعليمات ، ادخل على مسؤوليتي لنصنع خيرا ونقذفه في البحر .
دخل الرجل حاملاً ابنته.. ورأى شخصاً نائماً في غرفة الإسعافات على سرير المعاينة.
ناداه: هل أنت الطبيب المناوب؟
فرك الرجل عينيه: لا.. أنا المخدّر.. الطبيب نائم .
قال : أرجوك.. أيقظه.. ابنتي لدغتها عقرب
قال : لا أعرف أين ينام .
قال: أرجوك افعل شيئاً ابنتي تموت .. إنها لحظات حاسمة بالنسبة لها .

أجاب: قلت لك لا أعرف أين ينام .. ألا تفهم.
مدّ الرجل يده إلى جيبه قائل : سأكرمك.. أرجوك .
عندئذ نهض قائلاً وقد مد يده يتناول النقود: أنت تحرجني.. سأعرض نفسي لشتائم الطبيب.. لكن لا بأس ابنتك في خطر.
في الساعة السادسة أعاد ابنته إلى البيت.. فطلبت زوجته أن يذهب إلى المخبز الآلي ويجلب الخبز.. لم يكن لديه وقت ليجلس أو يبدّل ثيابه ، وعلى الفور اتجه إلى المخبز الآلي ، رأى حشداً يقف على شاكلة طابور.. لم يسمح له الوقت أن يقف في آخر الطابور ، عندئذ تقدم إليه طفل قائلاً: عمو أنت مستعجل.
حدق في الطفل وقال: إي مستعجل.
همس الطفل: اعطني حق ربطتين.. سأعطيك ربطة خبز الآن .
وأعطاه قيمة ربطتين.. قفز الطفل كالقط ودخل غرفة الموزع من الباب، وبعد لحظات عاد يحمل ربطة خبز قائلاً: خذ عمو
تناول الربطة وقال: هل تعرف الموزع .
أجاب الطفل بطفولة : أبي.. عمو .
عاد إلى البيت.. ارتدى ثيابه وخرج إلى الشارع ، وقف في موقف النقل الداخلي .
بعد قليل وقف الباص.. صعد ونوّل الجابي ورقة ، أعطاه الجابي بطاقة ونظر إلى مَن يقف خلفه..
قال.. ألن ترجع البقية .
أجاب الجابي : أنا موظف في البلدية ، هل تظن بأنني لص.. أم تظن بأنك أعطيتني ثروة .
قال : أنا آسف.. ظننتك نسيت.. فقط من أجل الحلال والحرام .
ووقف الجابي على قدميه صارخاً في وجهه : يا بن الكلب.. كيف تجرؤ أن تتهجم عليَّ في الباص.. خذ نقودك واعطني قيمة التذكرة ، لا يوجد عندي رجوع .
قال الرجل : ما دام لا يوجد عندك رجوع لماذا تشتمني .

قال: لأنك تظن بأنني لص .
وفجأة مدّ الجابي يده إلى قميصه ولطمه لطمة على فمه.. ثم توقف السائق ونط من خلف المقود متهجماً عليه ، وبعد دقائق رأى نفسه على الرصيف يرتدي قميصاً بلا أزرار وفمه مليء بالدم وبقايا أسنان محطمة وهو يسمع أصوات أناس حوله: احمد الله لم يأخذوك إلى السلطات ، كنت ستقضي ليلتك في النظارة.. كيف تتهجم على باص الدولة.. هل أنت مجنون .
وعاد إلى البيت، بدّل ثيابه.. وقبل الخروج سمع صوت جرس الباب .. وعندما فتحه.. رأى رجلاً قال بأنه جابي المياه.. أدخله.. نظر الجابي إلى الرجل وقال: يا أخي أنتم تهدرون الماء.. هل تتركون / الحنفية / مفتوحة وتنامون .
نوّله إيصالاً يفوق راتبه.. انتفض الرجل : لدي بيت صغير واحد.. لا يوجد لدي مصنع.. يا أخي حرام .
عندئذ همس الجابي قائلاً : لا عليك.. أنا سأتصرف مثلما يريحك..
قال: كيف؟
أجاب الجابي: اعطني فقط ربع المبلغ واعتبر الإيصال مدفوعاً .
نوّله الرجل ربع المبلغ المدون في الإيصال ، وانصرف الجابي شاكراً له تفهمه.
للتو استطاع أن يتجه إلى عمله.. قدّم اعتذارات وشروحات حتى استطاع أن يسجّل اسمه في سجلات الحضور اليومية.
وتذكر بأنه لم يقبض حوافز الشهر الماضي.. وذهب إلى المحاسب.
نوّله المحاسب الحافز فعدّ النقود وكانت ناقصة بضع ليرات.. عندئذ وقبل أن يفتح فمه مدّ إليه المحاسب المالي سيجارة قائلاً ببسمة : يا أخي سامحنا.. لا فراطة
لدي .
في الثانية والنصف عاد إلى البيت.. تذكر بأن علبة دخانه نفدت .. دخل دكاناً.. طلب علبة دخان.. ولم يجد.. عند خروجه.. تقدّم إليه طفل عرف

من خلال ملامحه أنه ابن صاحب الدكان وقال : عمو.. بدك دخان.. عندي .
تناول علبة وأعطاه قيمتها مرة ونصف.
قالت له زوجته : ما دمت قبضت الحوافز ادفع فاتورة الكهرباء ، سوف يقطعون عنا التيار .
تناول الغداء وغفا ساعة ، وفي الساعة الخامسة أيقظته زوجته ليذهب إلى مقر دفع فواتير الكهرباء ليسدد قيمة الفاتورة .
نوّل الموظف الفاتورة مع ورقة نقدية.. تناولها الموظف أعطاه إشعاراً بالقبض ولم يرجّع المبلغ الباقي من الورقة النقدية.
قال بخجل : لم ترد لي الرجوع .
أجاب الموظف: أعرف.. لستُ مسطولاً.. لا يوجد لدي رجوع .
قال: والحل ؟
أجاب الموظف وقد مدّ يده إلى إشعار القبض.. ثم أعاد فتح الدخل وأخرج الورقة النقدية ليقذفها في وجهه قائلا ً : خذ اصرفها وعد.. ثم نظر إلى ساعته : لكن.. لا تعد.. تعال غداً لأنني أغلقتُ دفتر القبض.
في هذه الأثناء وعندما فتح الموظف درج النقود بعصبية ، تمكن الرجل من رؤية نقود بكافة الفئات فلم يملك نفسه من القول : يا سيد.. لن أصرفها وستعطيني الإيصال المقطوع الآن.. أنا رأيت لديك نقود الرجوع .
نهض الموظف قائلا ً : لن أعطيك.. أرني ما أنت فاعل.. طز بك وبشخصيتك.. كائنا مَن تكون .
وحمل الكرسي.. خبطه على رأسه.. نزف الدم من الرأس وتهجم عليه الموظف يرفسه ويلطمه رغم الدماء التي تنز من رأسه .
بعد ذلك أجرى اتصالاً مدعياً بأن هذا الرجل تهجم عليه وحاول الاعتداء عليه بالضرب وسرقة أموال الدولة.
أخذته دورية شرطة إلى المخفر.. وبقي موقوفاً في النظارة من السابعة حتى الواحدة ليلا ً.. وفي الواحدة أخرجوه فقط / لتلتحق بوظيفتك في

الصباح / . عندئذ عاد إلى البيت منهكاً.. وتمدّد على السرير ، أحس بقنبلة موقوتة في رأسه ، وبذات الوقت ركبه يأس.. لم يستطع أن يتصور خروجه إلى الشارع غداً.. وخطرت له فكرة رأى بأنها ستودي به الخلاص .

نهض بهدوء من فراشه.. ارتدى ثياباً صوفية سريعة الاشتعال.. ولف محرمة حول وجهه ، وقبل أن يخرج رش ثيابه بسائل الكاز ، وملأ إبريقا منه ، ثم خرج يمشي على رؤوس أصابع قدميه كي لا يوقظ زوجته وابنته متجهاً إلى مكان تنفيذ الفكرة التي لبسته.

نظر إلى الضابط وإلى كاتبه وعاد يتمتم بيأس : دعوني أقتل نفسي.. لا أريد شيئاً غير أن أموت.. لماذا تصرون على بقائي حياً .

**أيام ليست لنا**

خرجت من البيت متأخرا ، حثثتُ الخطا إلى موقف النقل الداخلي ، نظرتُ مرة أخرى إلى الساعة ، تأخرت نصف ساعة ، اللعنة على السهر أوله متعة وآخره توبيخ ، بسرعة تمضي الساعة عندما أكون ساهراً ، و هاهي الساعة تقفز لا تعرف السير ببطء ، تركض بسرعة مذهلة ترتشف ساعات العمر المتبقية وأنظر إلى هذا الالتهام ، أنظر .. وعندما تتعطل فإنني أذهب إلى أقرب ساعاتي ليصلحها لي كي تعود إلى الالتهام .

تأخرت نصف ساعة ، كل يوم أتأخر ويوبخني زملائي رغم إنني لست مرتبطا بوظيفة حكومية ، ولكن حتى لو لم يكن لدينا أي عمل ونكون في إجازة عيد نرى مَن ينظر إلينا باستياء عندما يرانا نتأخر في النوم الصباحي الطيب .

أعرفهم جيدا ، إنهم ينامون منذ العاشرة مساء وبعد انتهاء مسلسل السهرة على الفور ، وأحيانا إن حدث طارئ وتأخر مسلسل السهرة ، فإنهم ينامون دون متابعة هذا المسلسل الذي يشدنا لمتابعة حلقاته المسلسلة ، وفي السابعة صباحا يستفيقون ، يقضون تسع ساعات نوم متواصلة ،

وعندما يعودون من العمل في الثانية ظهرا فإنهم يتغدون وينامون مرة أخرى لمدة ثلاث ساعات حتى السادسة مساء .
كل فراغهم يلتهمه النوم ، وكأنهم يرفضون الحياة ، ويستسلمون لهذا الموت المؤقت بهذه السهولة .
لن يكون بوسعي أن أعيش هذا النمط القاتل من الحياة ، وأفهم بأن النوم يعني الموت ولا أستسلم له إلا مضطرا ، أو هو على الأغلب يأخذني بغتة ، ولذلك فيمكن أن نرى من ينام مساء ولا يستفيق أبدا ، يتحول النوم المؤقت إلى نوم
أبدي .
من حقي أن أرفض هذا النمط من الحياة ، ترى هل هم على صواب أم أنا ؟ هذه المقارنة لا تعجبني ، لا علاقة لي بهم ، إنني مولع بمشاهدة الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، وعندما يأخذني النوم الأبدي فأنني لن أحسد أحدا بقدر الذين يسهرون إلى تلك الساعة في الثانية ليلا ، في ذاك الوقت الرائع الصامت الساحر أحسد الذي لم ينم بعد .
ليس أفضل من النوم المتأخر بالنسبة لي ، ولهذا الحب لا بد من أن أبتاع ساعة منبهة لتوقظني في السابعة والنصف صباحا ، الإنسان دون كرامة يفقد كل شيء ، لكنه دون خبز لا يفقد كل شيء يجب علي أن أحافظ على كرامتي ، وحتى إن اضطررت إلى التوقف النهائي عن هذا العمل ، وبحثت عن عمل آخر يبدأ متأخرا .

فرمل باص النقل الداخلي بمحاذاة الرصيف ، صعدتْ امرأة عجوز ، ولحقها بعض الأطفال ، وقبل أن يتحرك حجم الباص تمكنت من الصعود ، أخرجت بطاقة من حقيبتي الجيبية ، وأو لجتها في فم العلبة ، فقرضت أذنها بسرعة مذهلة ، ونظرتُ إليها متسائلا بصمتي : هذه العلبة لماذا تقرض آذان بطاقاتنا ؟؟
وبغتة اندفعتُ إلى الأمام مع حركة الإقلاع المتوترة كتأخري ، ولم أقع بفضل الممسك الذي تشبثت به كفي من سقف الباص ، وبعد موقفين

اندفعت مرة أخرى واندفع جميع الركاب بحركة واحدة .. صرخت امرأة ، شتم رجل للسائق ، وتوقف الباص في منتصف الطريق .
نظرنا جميعا إلى السائق نظرات تعجب واستفسار ، وبسرعة فائقة انفتح الباب الأمامي بحركة أوتوماتيكية وصعد عُقربان ضخم ، تعالى الصراخ ، نظر العُقربان إلينا واحدا واحدا ، وساد صمت على الوجوه ، ولبث السائق ينتظر حركة واحدة منه ليتصرف على ضوئها .
دنا العُقربان من راكب المقعد الأول ، وبعد لحظات أبرز له الراكب ما أراده ، ثم تقدم إلى الراكب الثاني ، وكرر ذات الحركة ، هبطت قلوبنا ، اصطكت أسنانا ، ولما دنا مني ، تراجعت إلى الوراء ، أشار إلي للنزول معه ، وبحركة سريعة تراجعت ونزلت من الباب الخلفي ، نزل العقربان خلفي وبدأ يهرول خلفي ، واتجهت صوب البيت بكل ما أوتيت من قوة في الركض ، وأنا أراه راكضا كسهم خلفي .. دخلت ، ولم أخلص من المطاردة ، جف ريقي خوفا وهلعا .
لم يسبق لي أن خفت من مخلوق كخوفي من هذا المخلوق الذي يركض خلفي ليمسك بي ، إن مجرد النظر في شكله يرعبني ، إنه منظر مخيف لا أتصوره ، لا أتصور الحديث معه ولو للحظة واحدة ، وأنا أركض أشعر بأن أحدا يسلبني حواسي حاسة حاسة .

دنوت من غرفتي ، انتابني شعور بالانتصار، هكذا هو البيت ، مجرد الاقتراب منه يشعر بالأمن ، / البيت / أي شيء يعني لي في هذه اللحظات ؟؟؟
التفت إلى الوراء ، ما يزال يركض خلفي بعزيمة أشد .. مددت يدي إلى جيبي وأنا أركض وخطواتي تدنو من الباب ، أخرجت المفتاح وفور وصولي فتحته بسرعة ، أدخلت جسدي الغرفة وأعدت غلق الباب ، إنه أكبر رعب يواجهني ، لو كان لدي مسدس لأطلقت النار على نفسي لا لقتلي ، وإنما لاغتيال هذا الرعب الذي يسيطر على كل ذرة من جسدي .. أي شيء يريده هذا العقربان ؟؟

يا له من عُقربان مرعب ، كيف توصل إلى هذا الحجم ، إنه بحجم حمار ، ويمشي على قدمين .
حملت سكينا ووقفت أمام الباب : سأرتكب حماقة فيما لو حطم الباب ، ودخل .
وقعت عيناي على رأسه خلف زجاج النافذة ، لم أحتمل النظر ، انفجرت مني صرخة، استلقيت على الأرض ، وأغمضت عيني ، ثم بعد دقائق زحفت على بطني إلى النافذة ، وسحبت الستار فاختفى العقرب خلف ستار النافذة ، عندئذ نهضت ورفعت صوت المسجلة .
تصفحت الجرائد القديمة ، فكرت في المرأة التي أحب ، ولكن العقربان يفرض حضوره على الذاكرة ويطاردني إلى آخر زاوية من تحت السرير .
بعد نحو نصف ساعة تناهى إلى سمعي نقر من بللور النافذة ، تخبطتُ بزاوية الغرفة المغلقة ، وتذكرت الأقراص المنومة ، تناولت أربعة أقراص دفعة واحدة ، يجب أن أفقد الوعي هذه اللحظة أو أنتحر ، لن احتمل هذا الرعب الذي يسببه لي هذا الكائن ، وغفوت لم أفق إلا في السادسة مساء ، نمت تسع ساعات متواصلة ، لأول مرة في حياتي أنام من التاسعة صباحا إلى السادسة مساء .
أحسست بأن مفاصلي قد تفككت ، شممت رائحة كريهة من لساني ، كم أنا مرتاح ومفاصلي مرتخية ، حالة استرخائية لم أعشها طوال عمري في وقت كهذا ، وشعرت بجوع عندما قرقر بطني ، تناولت بيضتين ، مع اللبن ، ومع تناولي تذكرت بأنني لم أذهب إلى العمل ، ومع هذا التذكر ، قفز السبب الذي منعني الذهاب ، وانتابني الفزع دفعة واحدة ، وعادت ملامح العقرب ترتسم على الجدران وتحاصرني ، أي جحيم هذا .
ألا يكفي العذاب الذي يأتينا من المجهول ، لو دسست إصبعي في مأخذ الكهرباء سأتألم للحظات وسأنتفض لمرة واحدة وأخيرة وينتهي هذا العذاب .

هل أضع نهاية مأساوية كهذه لحياتي هل سأنجح في المهمة ؟! وإن مت أي سؤال سيخلفه موتي الغامض ؟؟ بالطبع فإن العقربان لن يظهر ويقول بأنه دفعني إلى هذا العمل .
ُطرق الباب ، خفق قلبي ، مددت يدي إلى علبة الأقراص ، ابتلعت أربعة أقراص أخرى دفعة واحدة وسحبت اللحاف إلى قمة رأسي .. لا أدري كم من الوقت مضى عندما استفقت مخدرا .
مشيت مترنحا صوب البراد ، أخرجت رغيفا من الخبز وقطعتَي جبن وعلبة الطحينة وتناولت الطعام بشهية ، ولا أدري أي وجبة هذه ، ولكن الساعة تشير إلى الرابعة ، ولا أدري أي رابعة هذه ، رابعة الشروق ، رابعة الغروب ؟
لم يعد الوقت يعنيني ، إنني أعيش خارج هذا الزمن وخارج ساعته ، أي يوم هذا ؟؟ أي شهر ؟؟ إنني ما أزل لا أنشد غير سبيل من تكاتفنا الإنساني في لحظة اليأس هذه ، النعاس يحتلني وقد اشتقت إلى العودة إلى نظام حياتي السابق ، لست سجينا ولست حرا ، لست سجينا لأنني أعيش في بيتي ، ولست حرا لأنني لا أستطيع الخروج .
لقد دمر حياتي هذا العقربان ، علي أن أفعل شيئا لوضع نهاية للمأساة .
وفجأة انفرج شق الباب واندس العقربان بكامله إلى الداخل ، وقف قبالتي وقهقه بهستريا .. نظرت إليه وقد امتلأت ذعرا ، كيف تمكّن من الدخول ؟!
مددت يدي إلى علبة الأقراص المنومة والتهمت ما في قعرها من أقراص بسرعة خاطفة وهرولت إلى آخر زاوية من تحت السرير.. تكورت في ثيابي واستسلمت لنوم عميق .
لا أدري ما فعله بي ، ولكنني صحوت مع ارتطام رأسي بسقف السرير بقوة ، ومرة أخرى لا أدري كم من الوقت مضى ، كم من الأيام ،
لكنني أحسست بجوع شديد ، خرجت من تحت السرير مثل فأر ورأيت العقربان يجلس في منتصف الغرفة بانتظاري ، ويلتهم الطعام ، وبغتة هرولت إلى الخارج ، نجحتْ طريقتي ولم يلحقني العقربان ، إنه يأكل .

نظرت إلى الشارع ، كانت الشمس في منتصف السماء ، أوقفت رجلا في الطريق وسألته عن اليوم والشهر والسنة ، فعرفت بأنني أمضيت عشرين يوما في الغرفة مع الرعب ، واتجهت إلى محل جاري الذي ابتاع منه الحاجات اليومية ، فصافحني بحرارة وتبادلنا قبلتين ، قال : حمدا لله على سلامتك ، هل استمتعت بإجازتك ؟؟
حدقت فيه وتذكرت الغرفة ، وقعتْ عيناي على زجاجة تستقر على رف الزجاجات ، نظر إلي السمان وقال : أخيرا ستريد ؟
قلت : للضرورة أحكام ، فترة انتقالية ، لن تطول ، وتذكرت بأنني ذات مرة قرأت ما معناه : إن صرت مخيرا بين الزنا وبين العادة السرية فاختر العادة السرية إلى أن تتمكن من اجتناب الزنا ، وعندئذ ستتركه أيضا .
وأنا أيضا تذكرت حضور العقربان في البيت وقلت : لقد قتلتني الأقراص المنومة .
نوّلني الزجاجة فجرعت نصفها في المحل وعدت مترنحا وأنا أشتم العقربان بصوت مرتفع بدون أي خوف من أن يلسعني .
دخلت الغرفة ، ولم أجد ه ، نظرت إلى ما تحت السرير ورأيته يتكور في زاويتي ، ناديته : اخرج يا جبان ، اخرج ، ولم يخرج .
مددت يدي إليه ، وسحبته .
وقف قبالتي يرتعد ، بصقتُ عليه ، وأصبح كفأر ، تراجع إلى الوراء وهرول إلى الشارع ، وفي الشارع كل الناس يرتعبون منه وحدي الذي أطارده وأنا أترنح إلى نهاية الشارع ، وعدت إلى البيت ، فتحت الباب على مصراعيه واستلقيت على السرير بحرية العالم ، صحوت في السابعة مساء ، وخرجت إلى موقف باص النقل الداخلي .
وبالقرب من الموقف رأيت العقربان يدنو مني ، عدت إلى الخلف وجاء يركض ، وصلت إلى محل جاري ، طلبت زجاجة أخرى ، جرعت نصفها ، وواصلت السير في الطريق إلى الموقف مترنحا ، ولما رآني العقربان ، تراجع إلى الوراء ، ومشيت بثقة .

فـي تلـك اللحظـة عرفـت بـأنني أمـا أن أمشـي مترنحـا / بثقـة / أو أمشـي سليما \ بذعر \ وواصلت الطريق إلى عملي \ بثقة \ .

# القســم الثانــي

## هجري

كيف يمكن للقلب أن يحتفظ بكل مشاعر الاندفاع نحو شخص ما .. شخص ما دون غيره خلال كل هذه السنوات .
كيف يمكن له أن يستيقظ فجأة مع النظرات الأولى على ذاك الوجه ، مع الإشراقة الأولى لذاك الحضور .
كأنك كنت نائما وصحوت ، كأنك كنت يقظا وغفوت ،
صحوت على عالم ليس فيه موضع لغير المشاعر ، لغير دموع الحب ، لغير التأمل في معالم الجمال .
غفوت على إشراقة تلخص لك معنى الوجود ، وجودك في اليقظة ، وجودك في الحلم .
أجل ، إنه الإنسان الذي تغتني به الحياة ، الإنسان الذي يغتني به الإنسان .
حيثما يكون ثمة إنسان تكون الحياة بكل قوة حضورها ، لكن عندما لا يوجد إنسان يتعذر وجود أي حياة .
فجأة استوقفك الحدث الأكبر والأهم في حياتك ، حدث وقوع النظرة الأولى على وجهها ، أدركت بأنك أمام حدث لا يقع إلاّ مرة واحدة في العمر ، أنك أمام امرأة لا يراها الرجل إلاّ مرة واحدة في رحلة العمر .
انزويت في ركن مكتفيا بما أخذت ، ثم بعد خمس دقائق اتخذت القرار الذي أربك الحضور ، وأربك ابنتك وعريسها .
كل الأنظار اتجهت إلى خطواتك المغادرة قاعة الحفل .

كانت خطواتك تخرج بجسدك بيد أن روحك لبثت ملتصقة في كل ركن من أركان القاعة التي تشهد وقائع هذه الليلة الانتقالية الهامة في حياتك وحياة ابنتك .
بعد نصف ساعة كنت مستلقيا على سريرك محاولا النوم علـّه يخفف شيئا من قوة حضورها الذي هيمن عليك ، ذاك الحضور الذي زلزل كل ذرة فيك ، كانت لديك رغبة فيما لو كان ذلك وهما لايمت إلى الواقع بشيء ، وهل من السهولة أن يستطيع المرء الإنتقال إلى واقع آخر في غمضة عين ، هل من السهولة أن تأتي امرأة وتلهب كل تلك المشاعر النائمة .
لكن نبرات ابنتك المربكة التي تناهت من هاتفك الخليوي أبعدت أي محاولة نوم ، أو حتى استرخاء .
لم تكن لديك رغبة في الحديث مع أي شخص في العالم ، وتذكرت للتو كيف أنك لم تغلق هاتفك ، لكن اسمها الذي أخذ يتلألأ على الشاشة الملونة جعل قلبك خفاقاً، ورأيت أنك لن تستطيع أن تترك الرنين دون أن ترد عليه

- بابا .. أنا قلقة ، ماذا حدث ؟!
- بابا ..
- بابا ..

أحسست بتيه الكلمات عنك ، بعدم مقدرتك على صياغة جملة لتقولها ، وللتو أدركت معنى ما قمت به ولا تدري كيف خرجت كلمات متلعثمة على إلحاح ابنتك : بابا أين أنت الآن .. أنا وإيلاف سوف نعتذر من الضيوف ونأتي إليك .

إنه اليوم الذي لبثت تنتظره ، يوم ولدتْ تيماء ، وتخيلتَ عندذاك بأنك تراها بثوب الزفاف وتنجب لك حفيدا ، تحمله بين ذراعيك كأنه خلاصة عمرك كله ، كأنه الحقيقة الوحيدة المجدية أمام ناظريك .

عندما رأى أبوك تيماء لأول مرة وأخذها بين ذراعيه قال وهو ينظر إلى أمك : لم أكن أعلم أن الأبناء هم قشور ، والحفدة هم اللب الذي يكمن تحت القشور ، الأبناء هم قلوبنا ، لكن الأحفاد هم قلوب قلوبنا .
يومها كانت تيماء في سنتها الثانية تزور معك مكة لأول مرة ، يومها لاتدري لماذا تخيلت أنها أيضا سوف تجعلك جدا ذات يوم .

للتو بدأ يدرك وقع أن يتركها في ليلة زفافها ، وقع أن يتخلى عنها في الليلة الانتقالية الكبرى بالنسبة إليه وإليها معا ، كان يمكن لمارغريتا أن تحل محله في مثل هذه الليلة ، بيد أن العمر لم يمهلها لترى هذا الحدث الذي كانت دوما ترجوه لابنتها ، من يدري لعلّ روحها الآن ترفرف كحمامة بيضاء مرئية في المكان ، ترفرف على جناح ملاك .
خرجت من فيه عبارات ملعثمة: لا يا غاليتي ، أنا بخير ، سوف أكون هناك حالا .
وعلى الفور دخل الحمّام يأخذ دشا باردا ، ليخرج بحيوية ونشاط ، وما إن بلغ صالة الحفل حتى وقعت أنظاره على ذات المرأة قابعة هذه المرة إزاء ابنته على المنصة .
تقدم إلى ابنته طابعا قبلة على جبهتها ، ثم ابتسم وهو يصافح عريسها ، والتفت مصافحا ذات المرأة وهو ينظر في عينيها ويشعر بوهن لم يسبق له أن عرفه البتة ، لم تكن الكف التي عانقت الكف ، بل كان القلب هو الذي يعانق القلب ، والعينان تعانق العينين ، الحواس تعانق الحواس ، الحضن يعانق الحضن ، كانت ذرات الروح والجسد تسبح في ذرات الروح والجسد .
لم يكن يعلم بالوقت الذي مضي وكفه ما تزال في رحابة كفها لولا أن ابنته انتبهت إلى ذلك ودعته للجلوس ، فجلس إزاءها بينها وبين المرأة .

قالت ابنته بالإنكليزية : هذه المهندسة بربارة ، صديقتي في الوظيفة يا أبي . فرحب بها مبتسما ، ثم قالت لصديقتها بذات اللغة : إنه أبي وأستاذي وصديقي .
فابتسمت بربارة وهي تنظر إليه قائلة : أنا سعيدة بمعرفتك يا سيدي ، لقد حدثتني تيماء عنك في مناسبات شتى ، وكانت لدي رغبة في اللقاء بك منذ أكثر من سنتين .
بعد قليل استدار إلى ابنته هامسا بالعربية : تصورت بأني لن أكون قادرا على غيابك ، فخرجت أتنفس بعض الهواء .
هزّت رأسها : لا أعرف ماذا أصابني عندما رأيتك تخرج ، فاقترح إيلاف أن نتصل بك لنبلغك تأجيل الزفاف .
ضحك قائلا بالإنكليزية : زواج مبارك يا غاليتي . بدا يتابع برنامج الحفل وهو يشعر بسكينة عاطفية هائلة لمجرد جلوسه بقرب بربارا ، وفي لحظة رغب فيما لو طال الحفل فقط حتى يبقى جالسا في موضعه قريباً منها .
مارغريتا وهبته كل شيء ، جنبته الوقوع في كثير من الأخطاء ، جعلته لأول مرة يشبع من العشرة الزوجية ، ويغير مفهومه حولها . مارغريتا التي جعلته أبا ، وجعلته كائنا اجتماعيا يقوم بزيارات اجتماعية عائلية ، التي كانت خلف اتخاذ قرار البقاء في هذه البلاد بعد تخرجه وحصوله على الإجازة التي جاء من أجلها ، لكنه القدر الذي عليه أن يؤمن به . مفهومه للدين يجعله أن يتقبل كل ما يقع سواء بحزن ، أو بفرح ، سواء ببسمة ، أو بدمعة .
لكنه يعي أن الأمر مختلف بالنسبة لهذه الكائنة القابعة بقربه ، الكائنة التي يحلو له أن يقول عنها : عصفورة .
يشعر بأنه يجلس بقرب عصفورة تكاد تطير في أي لحظة غير متوقعة وتأخذ معها أعظم لحظات الظفر التي يعيش في محرابها .

عند الساعة الثالثة صباحا انتهى الحفل ، وودع الحضور العروسين اللذين انطلقا لقضاء عدة أيام خارج المدينة .
عاد هجري وحيدا إلى البيت لأول مرة منذ خمس وعشرين سنة .
جلس على الأريكة وهو لا يقوى على مقاومة غصة اعتلت حنجرته .

ها هي مراحل الحياة تتقاذفك يا هجري ، كالبارحة ودّعت أهلك لتصبح طالبا مبتعثا في هذه البلاد .
ودعت أهلك الذين ترعرعت بينهم يوما بعد يوم ، ودعت مكة التي ولدت فيها وجبت كل طرقاتها ، مكة التي لها وقع خاص في نفسك وتحمل كل ذكريات عبق الطفولة والمراهقة .
بين حين وحين كنت تهاتف أهلك ، ولبث أبوك يكتب لك الرسائل كل ليلة جمعة ليرسلها بالبريد كل صبيحة سبت ، يكتب لك تلك الرسائل الطويلة التي يوجه فيها النصح لك ، تلك الرسائل التي ما تزال تحتفظ بها وتعود إليها بين الحين والآخر ، الرسائل التي تحتوي على خبرة عمر موجهة من أب إلى فلذة كبده .
كل تركيزك كان على الهدف الذي تغربت من أجله ، كنت تحلم أن تحصل على الإجازة وتعود إلى مكة ، تقدم شيئا يسيرا من فضلها عليك ، لكن قبل تخرجك بسنة رأيت / مارغريتا / لأول مرة ، مارغريتا التي لم يعجبك شيء فيها قدر إعجابك بنظرتها الجادة إلى الحياة ، كانت تذكّرك بأمك في جدّيتها . ولم تتردد في الزواج منها خلسة بعد ستة شهور من معرفتك بها .
ستة شهور استطاعت أن تغيّر الكثير من مفاهيمك عن الحياة ، وسلوكيات العيش في هذه البلاد .

كانت مارغريتا بالنسبة إليك النتيجة الإيجابية للحرية ، وكنت تحلم أن تنجب منها ابنة تحذو حذوها في استيعاب الحرية والنظرة الجادة إلى الحياة .
عندما حملت مارغريتا صارحت أهلك بهذا الزواج وقلت بأنك قررت البقاء في هذه البلاد ، والعمل في سفارة بلادك .
أبوك استاء من هذا القرار الذي لم يكن يبتغيه كونك ابنه الوحيد في هذا العالم ، لكنه لم يشأ أن يفرض رأيه عليك ، ترك لك حرية التصرف في حياتك
وفق ما تشاء .
عندئذ انقطعت رسائله عنك لأول مرة ، وكم كنت تشعر بوحشة عندما كنت تتفقد صندوق بريدك ولا ترى منه رسالة ، عندها كنت تعود لتقرأ رسالة سابقة منه وكأنها وصلت للتو ، كأنك تقرأها لأول مرة .
مضت بك السنوات لتكبر تيماء سنة بعد سنة وتذهب معك إلى مكة ، تتعرف بجدها وجدتها ، بعمها وعماتها ، وتحج مع جدها لتصبح الحاجة تيماء في الخامسة عشرة من عمرها ، ثم تدخل الجامعة لتدرس الهندسة ، لكن مارغريتا تترككما وأنتما بأمس الحاجة إليها .
مارغريتا التي اقترن وجودك في هذه البلاد بوجودها تمضي فقط ستة أيام على سرير المرض لتختفي عنكما إلى الأبد .
كان ذلك كوقع الصاعقة على تيماء ، لكنها شيئا فشيئا بدأت ترى العزاء بك واستطاعت أن تتخلص من نوبات التوتر التي كانت تنتابها بين حين وحين عندما كنت تتحدث لها عن الدين ، واضطررت أن تأخذها إلى مكة لتمضي ثلاثة شهور في بيت جدها حتى تشعر ببعض التغيير .

الآن يا هجري عاد كل شيء لأوله ، عادت أيامك الأولى التي وطئت فيها قدماك هذا المكان ، عادت كل تلك الأنسام تهب عليك ،

عادت الوحدة والعزلة ، عدت إلى النوم بمفردك في البيت عادت كل تلك الطقوس التي كنت تعيشها عندما وطئت قدماك هنا لأول مرة .
تخرج وتعود كأنك لاتخرج ، كأنك لا تعود ، لا أحد ينتظرك ، لا أحد يقلق عليك إن تأخرت ، لا أحد يتصل بهاتفك الخليوي ليعرف أين أنت الآن ، لا أحد يطلب منك قضاء حاجة ، ولا تطلب من أحد قضاء حاجة .
تيماء راحت إلى حياتها الجديدة ، راحت إلى مستقبلها وعالمها الأسروي الذي سوف تكوّنه مع إيلاف ، وستكون محظوظا فيما لو أهدتك حفيدا تستأنس به وتذهب إليه كلما أحسست بالسأم .
سوف تأتيك تيماء في زيارات متقطعة في هذه الغربة ، ومن ثم تعود إلى بيتها القريب من بيتك ، وإن غلبك الشوق سوف تهاتفها أو تذهب لتقضي بعض الوقت في بيتها .
هل انتهى كل شيء أمام هذا الحدث يا هجري .

وقف أمام نافذة بيته يتأمل الطريق والوجوه والسيارات العابرة والأشجار : لكن بربارا يا هجري تفرض حضورها عليك مهما داريت عن نفسك ومهما تهربت من هذه الحقيقة ، بربارا التي لا تعرف عنها شيئا تأتي وتؤسس كل هذا الحضور العميق في حياتك .
ولايدري كيف عادت تلك القصائد التي كانت حفظتها ذاكرته أيام الشباب وبدأ يدندن مستحضرا صورة بربارا :

لها من ظباء الرمل عين مريضة
ومن ناضر الريحان خضرةُ حاجبِ
ومن يانع الأغصان قد وقامة
ومن حالك الحبر اسوداد الذوائب •

•من قول خالد الكاتب

أيا قمرا تبسم عن إقاح
ويا غصنا يميل مـع الرياح
جبينك والمقبَّــلُ والثنايا
صباح في صباح فـي صباح

وبدأ ت نسمات عليلة تهب على قلبه وهو ينشد كأنه يغني :

عليم بما تحت العيون من الهوى
سريع بكسر اللحظ والقلب جازع
فيجرح أحشائي بعين مريضة
كما لان متن السيف والحد قاطـع •

صل بخدي خديك تلق عجبا
من معانٍ يحار فيها الضمير
فبخديك للربيع رياض
وبخدي للدموع غديـر •

أسيلةُ مجرى الدمع هيفاء طفلة
عروب كإيماض الغمام ابتسامها
كأن على فيها وماذقتُ طعمه
زجاجة خمر طاب فيها مدامها •

---

•ابن المعتز
•ابن المعتـز
•ذو الرمـة

نقلَ الأراكُ بأن ريقة ثغرِهِ
من قهوة مُزجت بماء الكوثر
قد صح مانقل الأراك لأنه
يرويه نصا عن صحاح الجوهري •

بعد عشرة أيام عادت تيماء وزوجها وقرعا جرس الباب عليه في الواحدة ليلا ، وكان مستيقظا يشاهد التلفاز .
. كانت مفاجأة غير متوقعة في ذاك الوقت وكأن تيماء عادت من قارة أخرى بعد عشر سنوات غياب ، قذفت بنفسها في حضنه وغدت تبكي ثم تقبل يديه وتنظر في عينيه بلوعة ، وما لبث أن تقدم إيلاف واحتضنه ثم جلسوا جميعا إلى أن انتشر ضوء الفجر في الأفق .
لبثت تيماء مع زوجها ثلاثة أيام عنده ، وفي ظهيرة اليوم الرابع غادرت إلى بيتها الجديد برفقة رفيق عمرها .
أراد هجري أن يعتمد على العمل في مواجهة العزلة التي فرضت عليه مرة أخرى فغدا يقضي جل وقته في العمل ويعود إلى البيت الموحش منهكا لينام ويستيقظ صباحا عائدا إلى عمله مرة أخرى .
بعد ثلاثة أسابيع دعته ابنته إلى تناول الغداء في بيتها ، فذهب بشوق ليُفاجأَ بوجود بربارة . عادت ذات المشاعروهو ينظر إليها ، ثم يتقدم ليقبل ابنته ، ويقبل إيلاف ، ويتقدم نحوها مادا كف المصافحة متخيلا تلك اللحظات الرهيبة التي صافحها فيها أول مرة ، لبثت الكف في الكف كالمرة الأولى وهو يتخيل نفسه في عالم آخر ، عالم كان يسمع به ، أو يقرأ عنه ، أو يشاهده مجسدا في شاشة التلفاز ، بيد أنه الآن يعيش تفاصيل هذا العالم وكفه تعانق رحابة كفها .
انتبهت تيماء لذلك ودعته للجلوس ، فسحب كفه منتبها لذلك .

---

•الصلاح الصفدي

جلسوا جميعا إلى مائدة الغداء العامرة ، فقال هجري وهو ينظر إلى زينة المائدة المحملة بألوان الطعام والشراب كان النبي يقول : ( إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده في مأكله ومشربه ) .
أراد إيلاف أن يكرمك يا أبي ، ثم نظرت إلى بربارا وقالت بالانكليزية : أردت أن تكون بربارا أول من تتناول معي الغداء في بيتي .
ابتسمت بربارا وقالت بأنها تقدر هذه المكانة .
ومع تناول الطعام قال هجري بالانجليزية وكأنه يوجه حديثه إلى بربارا فحسب رغم أنه لم ينظر إليها : كان نبي الإسلام يحب الدباء ويقول : ياعائشة إذا طبختم قدرا فأكثروا فيها من الدباء ، فإنها تشد القلب الحزين ، وهي شجرة أخي يونس .
وكان يوصي : عليكم بالقرع فإنه يشد الفؤاد ويزيد في الدماغ ، وعليكم بالعدس فإنه يرق القلب ، ويغزر الدمعة .
وكان أبوهريرة يقول : أكل التمر أمان من القولنج ، وشرب العسل على الريق أمان من الفالج ، وأكل السفرجل يحسن الولد ، وأكل الرمان يصلح الكبد ، والزبيب يشد العصب ، ويذهب بالنصب والوصب ، والكرفس يقوي المعدة ، ويطيب النكهة ، وأطيب اللحم الكتف .
وكان يديم أكل الهريسة ، ويأكل على سماط معاوية ، ويصلي خلف علي ، ويجلس وحده .
قالت بربارا : لماذا كان يفعل ذلك ؟
قال وهو ينظر إليها هذه المرة : كان يقول : الطعام مع معاوية أدسم ، والصلاة خلف علي أفضل ، وهو أعلم ، والجلوس وحدي أسلم .
فضحكوا جميعا .
قال الحسن بن سهل يوما على مائدة المأمون : الأرز يزيد في العمر ، فسأله المأمون عن ذلك فقال : يا أمير المؤمنين إن طب الهند

صحيح ، وهم يقولون : إن الأرز يري مناما حسنة ، ومن رأى مناما حسنا كان في نهارين .
وكان يقال للكسبارج • بأنه سيد المرق وشيخ الأطعمة وزين الموائد .
دعا الحجاج إلى وليمة وقال لزازان : هل عمل كسرى مثلها ؟
فاستعفاه ، فأقسم عليه ، فقال : أولم عبد عند كسرى ، فأقام على رؤوس الناس ألف وصيفة ، في يد كل واحدة إبريق من ذهب ، فقال الحجاج : أف والله ماتركت فارس لمن بعدها من الملوك شرفا .
أراد رجل أن يصنع مقلبا برجل فأهدى إليه فالوذجة • منتهية الصلاحية وكتب إليه : إني اخترت لعملها السكر السوسي ، والعسل المارداني ، والزعفران الأصبهاني . ولما رآها الرجل قال : والله العظيم ما عملت إلا قبل أن توجد أصبهان ، وقبل أن تفتح السوس ، وقبل أن يوحي ربك إلى النحل .
فضحك الجميع بانتظار المزيد وقد أوشكوا من فراغ الطعام .
فقال هجري : كلوا فأنتم لم تأكلوا شيئا ، قيل أن وهب بن جرير سأل ميسرة البراش عن أعجب ما أكل فقال : أكلت مائة رغيف بمكوك بلح . ومر ميسرة هذا ذات يوم بقوم وهو يركب حمارا ، فدعوه للضيافة وذبحوا له حماره ، وطبخوه وقدموه له ، فأكله كله ، ولما أصبح طلب حماره ليركبه فقيل له : هو في بطنك . واستغرقوا جميعا في ضحك مجلجل .
كان هلال بن الأسمر يضع القمع على فيه ويصب اللبن أو النبيذ .
قال أبو المجسر الأعرابي : كانت لي بنت تجلس معي على المائدة فتبرز كفا كأنها صلفة في ذراع كأنه جمارة ، فلا تقع عينها على لقمة نفيسة إلا خصتني بها ، فكبرت وزوّجتُها ، وصرت أجلس إلى مائدة

---

•طعام فارسي
•طعام فارسي

مع ابن لي ، فيبرز كفا كأنها كرنافة ، فو الله لم تسبق عيني إلى لقمة طيبة إلا سبقت يده إليها .
قال صدقة بن عبيد المازني : أولم لي أبي لما تزوجت ، فعمل عشر جفان ثريد جزور ، فكان أو من جاءنا هلال المازني ، فقدمنا له جفنة مترعة فأكلها ، ثم أخرى فأكلها ، حتى أتى على الجميع ، ثم بقربة مملوءة من النبيذ فوضع طرفها في شدقه ، وأفرغها في جوفه ، ثم قام فخرج ، واستأنفنا عمل الطعام .

بعد الفراغ من الطعام ، بدأت تتحدث لأبيها عن صديقتها بربارا التي دوما تلح عليها حتى تتحدث لها عن الإسلام .
كانت تقول بأن معلوماتها عن هذا الدين متواضعة وهي ترغب في معرفة المزيد عنه ، إنها تعرف بأنه يحتوي على الكثير من المفاهيم والأفكار والقيم التي عليها أن تعرفها ، بيد أنها لم تر مناسبة حتى يحدث ذلك .
وكانت تيماء دوما تخبرها أن أباها هو خير من يمكن أن يتحدث لها عن هذا الدين ، فهو ولد في مكة ، المكان الذي ولد فيه نبي الإسلام ، ومشى في ذات الطرقات التي مشى فيها ، ورأى الأماكن التي رآها وترعرع فيها ، إلى جانب أنه استطاع أن يقرأ مكتبة البيت التي تزخر بنفائس الكتب التي تتحدث عن الإسلام ، وكذلك الرسائل التي تلقاها من أبيه ، والتي تشرح له كيف يتخذ من الاسلام طريقة للحياة . وغدت تتحدث لها عن خصوصية مكة ، مكة التي هي / قبلة الدنيا / يتجه إليها الناس من كل بقاع الأرض لزيارة الكعبة ، وهي التي تحتفظ ببيت ولد فيه نبي الإسلام ، ذاك المكان الذي يسمى / سوق الليل / وفيها بيت السيدة خديجة التي أنجبت فيه كل أبناء النبي ، وهي البقعة الوحيدة التي يتجه فيها سكانها إلى القبلة من الجهات الأربع .
قال فيها النبي : والله أنك لخير أرض وأحب أرض الله

إلى الله ولو لا أنى أخرجت منك ما خرجت •

ولما استعمل عتاب بن أسيد على مكة قال: ياعتاب أتدرى على من استعملتك ؟ على أهل الله تعالى فاستـــوص بهم خيرا .

وقال :إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمـــة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه ولاينفر صيده ولا يلتقط لقطتـــه إلا من عرفها ولا يختلى خلاها .

ولها أكثر من ثلاثين اسما منها :
مكة - بكة - أم القرى - البلد الأمين
والأسماء الأربعة ورد ذكرها في القرآن الكريم صريحا - قال تعالى : (وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيدكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم ) وقال تعالى :( إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين ) وقال: ( وهذا كتابا أنزلنا مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها ) وقال جل جلاله : ( والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين )
ومن الأسماء التي وردت في القرآن أيضا :

الوادي - معاد - البلدة - البلد - القرية

ومن أسماء مكة المكرمة التي لم ترد في القرآن :

الباسة - الناسة - النساسة - الحاطمة - صلاح - القادس - كوثي - المسجد الحرام - البيت العتيق - أم رحم -أم زحم – الرأس.

---

•رواه أحمد والترميذي وهو حديث صحيح

كانت سعيدة وهي تتحدث عن تفاصيل الدين لها ، وكانت بربارا أيضا تلح عليها أن تعرف المزيد وتخبرها عما تعرفه من معلومات وأفكار جديدة .
كانت تيماء تقول لها بأن العلاقة بين مكة والمدينة هي علاقة تبادلية وتكاملية :
في مكة ياصديقتي نزلت أول آية من آيات القرآن ، وبعد هذه المرحلة هاجر النبي إلى المدينة لتنزل عليه الآيات وهو هناك . لقد لبث في المدينة بيد أن العلاقة بدأت تأخذ تكامليتها لأن القبلة لبثت في مكة ، وهذا ياصديقتي يرمز بأن الرسالة هي ليست مكية فحسب ، بل هي مدنية أيضا ، والمدنية هنا ترمز إلى رحابة العالم ، إنها ليست المدينة المنورة فحسب على قدر ما هي المدينة الكونية ، هنا يمكن أن أقول لك بأن الإسلام منذ هذه المرحلة بدأ في نداء العولمة من أجل أن يكون هذا العالم عالما واحدا مع الحفاظ على خصوصيات المجتمعات ،
الشعوب والقبائل هنا تتعارف وتتلاقح ، والتقي هو الأكرم عند الله .

فأصبح لدى بربارا توق لأن تدخل إلى عالم الإسلام من خلال هذا الرجل ، وبدا الإسلام أمامها مثل باب يمتلك هجري مفتاحه .
وهنا تحدثت تيماء بشكل مباشر مع أبيها حول هذا المطلب من صديقتها ، وبدت بربارا سعيدة لأنها تحدثت نيابة عنها وقالت ما ابتغت أن تقوله .
أمضى هجري تلك الليلة في بيت ابنته ، وفي الصباح عاد إلى البيت دون أن يذهب إلى العمل لأنه أحس بحاجة إلى أخذ قسط من الراحة .

الإسلام الذي له كل هذا الفضل عليك ياهجري ، ماذا بمقدورك أن تتحدث عنه لبربارا ؟

ولايدري كيف قفزت الوقائع التي عاشها نبي الإسلام حتى أوصله إلى الناس ، تلك الرحلة الشاقة والمؤلمة التي كان بطلها ، وحقق فيها انتصارا .

فهاهو يخرج مع أبي بكر ومولاه ودليلهما من مكة ويمرون بخيمة امرأة عجوز تُسمَّى أم مَعْبد ، كانت تجلس قرب الخيمة تسقي وتُطعِم، فسألوها لحماً وتمراً ليشتروا منها، فلم يجدوا عندها شيئاً. نظر الرسول إلى شاة في جانب الخيمة، وقال: ما هذه الشاة يا أم معبد
قالت : شاة خلَّفها الجهد والضعف عن الغنم.
قال : هل بها من لبن
قالت : بأبي أنت وأمي ، إن رأيتَ بها حلباً فاحلبها .
فدعا النبي -عليه الصلاة و السلام- الشاة، ومسح بيده ضرعها، وسمَّى ، ثم دعا لأم معبد في شاتها حتى فتحت الشاة رِجليها، ودَرَّت.
دعا بإناء كبير، فحلب فيه حتى امتلأ، ثم سقى المرأة حتى رويت، و سقى أصحابه حتى رَوُوا، ثم شرب آخرهم، ثم حلبَ في الإناء مرة ثانية حتى ملأ الإناء، ثم تركه عندها وارتحلوا عنها .
بعد قليل أتى زوج المرأة يسوق أعنُزاً يتمايلن من الضعف، فرأى اللبن **!**
قال لزوجته: من أين لكِ هذا اللبن يا أم معبد و الشاة عازب ولا حلوب في البيت**؟!!**
أجابته: لا والله ، إنه مَرَّ بنا رجل مُبارَك من حالِه كذا وكذا.
قال : صِفيه لي يا أم معبد
- : رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة، أبلَجَ الوجهِ ، لم تَعِبه نُحلَة ولم تُزرِ به صُقلَة ، وسيمٌ قسيم ، في عينيه دَعَج ، وفي أشفاره وَطَف ، وفي صوته ، و في عنقه سَطع ، وفي لحيته كثاثة ، أزَجُّ أقرَن، إن صَمَتَ فعليه الوقار، و إن تَكلم سما و علاهُ البهاء، أجمل الناس و أبهاهم من بعيد، وأجلاهم و أحسنهم من قريب، حلوُ المنطق، فصل لا تذْر ولا هذَر ، كأنَّ

منطقه خرزات نظم يتحَدَّرن، رَبعة ، لا يأس من طول، ولا تقتَحِمُه عين من قِصر، غُصن بين غصنين، فهو أنضَرُ الثلاثة منظراً، وأحسنهم قَدراً، له رُفَقاء يَحُفون به، إن قال أنصَتوا لقوله، وإن أمَرَ تبادروا لأمره، محشود محفود ، لا عابس ولا مُفَنَّد.
قال أبو معبد: هو والله صاحب قريش الذي ذُكِرَ لنا من أمره ما ذُكِر بمكة، و لقد همَمتُ أن أصحبه، ولأفعَلَنَّ إن وَجدتُ إلى ذلك سبيلا.

الآن وبعد كل هذا الانتشار ، وهذا الزمن ، يشعر بارتباك وهو يسعى لأن يوصل هذه الرسالة إلى امرأة واحدة من هذا العالم ، وهل سينجح في مهمة كهذه ، هل سينجح في أن يجعل بربارا تحب هذا الدين ، أم يفشل فيكون سببا في استيائها منه .
عادت إلى مخيلته كل تلك الأحداث والوقائع التي عاشها ذاك الرجل الذي أراد أن يغير مجتمعا ، يغير أمة ، يغير عالما .
ذاك الطفل الذي يكبر سنة بعد سنة في شعاب مكة ، ويحبها كل الحب ، يتعلق بها كل التعلق ، لكنه ينوضع أمام خيارين ، خيار أن يبقى فيها ويتوقف عن نشر رسالته ، وخيار أن يخرج منها ويستمر في نشر رسالته.
فيميل إلى فكرة الهجرة ، ليس ليبتعد عن أحب البقاع إلى قلبه ، بل حتى يتمكن من أن يقدم لها شيئا مجديا ، ويعبر لها ولناسها عن عمق محبته وإخلاصه لها ولهم .
وسيستطيع أن يجعل من هذا الحدث الأكبر في حياته ليكون حدا فاصلا في التاريخ الإنساني برمته ، تاريخ ماقبل الهجرة ، وتاريخ مابعد الهجرة .
يتذكر في صحيح البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله قال: ما سُئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم- شيئاً على الإسلام إلا أعطاه، سأله رجل فأعطاه غنماً بين جبلين فأتى الرجل قومه، فقال لهم: يا قوم أسلموا فإن محمداً يُعطي عطاء من لا يخشى الفاقة . وكان الرجل ليجيء إلى

رسول الله - صلى الله عليه وسلم- ما يريد إلا الدنيا فما يمسي حتى يكون دينه أحب إليه وأعز من الدنيا وما فيها، وقد سئل عن جود الرسول وكرمه، فقال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم- أجود الناس، وكان أجود ما يكون في شهر رمضان حين يلقاه جبريل بالوحي فيدارسه القرآن، فرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة.

وحملت إليه تسعون ألف درهم فوضعت على حصير، ثم قام إليها يقسمها فما رد سائلاً حتى فرغ منها.

عن أنس أن النبي - صلى الله عليه وسلم- أدركه أعرابي فأخذ بردائه فجبذه جبذة شديدة حتى نظر إلى صفحة عنق رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وقد أثرت فيه حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك فالتفت إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم- فضحك وأمر له بعطاء •

ويتذكر عن أبي هريرة أن أعرابياً جاء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم- يستعينه في شيء فأعطاه ثم قال: (أحسنت إليك) .

قال الأعرابي: لا، ولا أجملت، قال: فغضب المسلمون وقاموا إليه فأشار إليهم أن كفوا، قال عكرمة: قال أبو هريرة: ثم قام النبي - صلى الله عليه وسلم- فدخل منزله ثم أرسل إلى الأعرابي فدعاه إلى البيت فقال: (إنك جئتنا فسألتنا فأعطيناك، فقلت ما قلت)، فزاده رسول الله - صلى الله عليه وسلم- شيئاً، ثم قال: (أحسنت إليك)، قال الأعرابي: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً.

فقال النبي : (إنك جئتنا فسألتنا فأعطيناك، وقلت ما قلت، وفي أنفس أصحابي شيء من ذلك، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك)، قال: نعم.

---

•البخاري الفتح، كتاب الأدب، باب التبسم والضحك (٥١٩/١٠) رقم (٦٠٨٨)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء من سأل بفحش وغلظه (٧٣٠/٢-٧٣١) رقم (١٠٥٧).

قال أبو هريرة: فلما كان الغد أو العشي جاء فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم-: (إن صاحبكم هذا كان جاء فسألنا فأعطيناه، وقال ما قال: وأنا دعوناه إلى البيت فأعطيناه فزعم أنه قد رضي أكذلك) قال الأعرابي: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً.
قال أبو هريرة: فقال النبي - صلى الله عليه وسلم-: (ألا إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة، فشردت عليه، فاتبعها الناس، فلم يزيدوها إلا نفوراً، فناداهم صاحب الناقة: خلوا بيني وبين ناقتي فأنا أرفق بها وأعلم، فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردها هوناً هوناً حتى جاءت واستناخت، وشد عليها رحلها، واستوى عليها، وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال، فقتلتموه دخل النار) رواه البزار في مسنده وقال: لا نعلمه يروى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- إلا من هذ الوجه •

( إنَّ لي أسماء : أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناسُ على قدمي، والعاقب الذي ليس بعده نبي ) •

( وما محمّد إلارَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) آل عمران:١٤٤.

---

• كشف الأستار (١٥٩/٣-١٦٠).

•البخاري – الفتح – كتاب المناقب ، باب ماجاء في أسماء رسول الله وصلى الله عليه وسلم – ٦٤١/٦رقم ٣٥٣٢، ومسلم كتاب الفضائل باب في أسمائه صلى الله عليه وسلم ١٨٢٨/٤ رقم ٢٣٥٤

( ما كان محمّد أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً) الأحزاب:٤٠.

( وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ على محمّد وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ) محمد:٢.

( محمّد رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً) الفتح:٢٩ .

محمد بن عبد الله بن عبد المطلب – واسمه شَيبة- بن هاشم– واسمه عمرو- بن عبد مناف – واسمه المغيرة- بن قصي – واسمه زيد- بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر – وهو الملقب بقريش- وإليه تنسب القبيلة – بن مالك بن النضر – واسمه قيس- بن كنانة بن خزيمة بن مدركة – واسمه عامر- بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان •

في صحيح البخاريِّ عن عبدِ اللهِ بنِ عمرو ، قال: قرأت في التوراة صفةَ النَّبيِّ-صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ-: محمد رسول الله، عبدي ورسولي وسميته المتوكِّل، ليس بفظٍّ ولا غليظٍ، ولا صخّاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئةِ السيئةَ، بل يعفو ويصفحُ، ولن أقبضَهُ حتى أقيمَ به الملةَ العَوجاءَ، بأن يقولوا: لا إله إلا الله •

---

•سيرة ابن هشام ١ /١١- ١٥ ، زاد المعاد ١/ ٧١

•البخاري كتاب التفسير باب ( إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ) ٤٤٩/٨ رقم ٤٨٣٨ زكتاب البيوع باب كراهية الصخب في الأسواق ٤٠٢/٤ رقم ٢١٢٥

مساء جلس على الأرض ، وهي العادة التي يتبعها حتى لاينسيه الجلوس على الكرسي والأرائك ، ذاك الجلوس المحبب إليه على الأرض متكئا إلى مخدة ، كما أنه يتعمد بين حين وحين أن يقطع اللحم ويضعه مع الرز في الملعقة ويتناوله ، تلك الطريقة التي كان والده يتبعها مع نفسه ومع ضيوفه ، عندما كان يقطع اللحم إلى قطع صغيرة في المنسف ويضعه على الرزأمام الضيف ، ويفعل كذلك بالنسبة لنفسه .

اتكأ بساعده الأيمن على مخدة وعادت إليه الأفكار مرة أخرى : هل ستنجح ياهجري في أن تقدم الإسلام إلى بربارا ، هل ستنجح في إقناعها بأنه بات يمثل بالنسبة إليك طريقة للحياة ؟

رأى أن يستعين برسائل والده التي استطاعت أن تعزز في نفسه روح الإسلام ، استطاعت أن تجنبه الكثير من العقد والفهم القاصر للكثير من العلاقات والأحداث :

يابني ، لن تشعر بشيء من الأمن قبل أن ينتابك إحساس عميق بأنك بين يدي الله ، ولن يصيبك إلا ما كتبه الله لك .

كل مايقع هو نفع للمؤمن ، فإن كان خيرا انتفع به ، وإن كان شرا اتخذ منه العبرة .

يقول عمر بن الخطاب : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد ، أخبرني عن الإسلام ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم

الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا) . قال: صدقتَ ، قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه.
قال: فأخبرني عن الإيمان ؟ قال: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره) . قال: صدقت .
قال فأخبرني عن الإحسان ؟ قال: ( أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ) .
قال: فأخبرني عن الساعة ؟ قال: ( ما المسئول عنها بأعلم من السائل ) .
قال: فأخبرني عن أماراتها ؟ قال: ( أن تلد الأمة ربَّتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاءَ الشاء يتطاولون في البنيان ) .
قال : ثم انطلق ، فلبثتُ مليًّا ، ثم قال لي: ( يا عمر ، أتدري من السائل ؟ ) .
قلت: الله ورسوله أعلم .
قال: ( فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم ).

* * *

تعلم دوما أن تعفو عن الناس وتذكر دوما قول ربك جل ذكره وتقدس اسمه : ( واصفح الصفح الجميل ) ، ( خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين ) ، ( والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ) ، ( إن ذلك لمن عزم الأمور ) .

يقول النبي : ( رأيت قصورا مشرفة على الجنة ، فقلت : ياجبريل لمن هذه ؟
قال : للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ) .
قال معاذ بن جبل : لما بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قال : ( مازال جبريل عليه السلام يوصيني بالعفو ، فلولا علمي بالله لظننت أنه يوصيني بترك الحدود ) .
يقول النبي : ( من كظم غيظه وهو قادر على أن ينفذه ، دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره في أي الحور شاء ) .
ويحكى عن جعفر الصادق أن غلاما وقف يصب على يديه فوقع الابريق من يد الغلام في الطست ، فطار الرشاش في وجهه ، فنظر جعفر إليه نظر مغضب ، فقال : يامولاي والكاظمين الغيظ ، قال : قد كظمت غيظي ، قال : والعافين عن الناس . قال : قد عفوت عنك ، قال : والله يحب المحسنين ، قال : اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى .
ونزل الإمام الشافعي بالإمام مالك فصب بنفسه الماء على يديه وقال له : لايرعك مارأيت مني ، فخدمة الضيف على المضيف فرض .
وروي أن عمر بن الخطاب رأى سكران فأراد أن يأخذه ليعزره ، فشتمه السكران ، فرجع عنه ، فقيل له : يا أمير المؤمنين لمّا شتمك تركته ، قال : إنما تركته لأنه أغضبني ، فلو عزرته لكنت قد انتصرت لنفسي ، فلاّ أحب أن أضرب مسلما لحمية نفسي .
تذكر دوما سيرة نبيك ، تذكر إرشاده :

فما حملتْ من ناقة فوق ظهرها
أبرَّ وأوفى ذمة من محمد •

وأحسن منك لم تر قط عيني
وأجمل منك لم تلد النساء

•من قول سارية الدويلي ، وهو سارية الذي أمره عمر عنه بالسرية ، وناداه في خطبته بقوله يا سارية الجبل

خلقت مبرءاً من كل عيب
كأنك خلقت كما تشاء •

*  *  *

ما يهم هنا استشارة حواس العقل في كل فعل تود القيام به ،
في كل فكرة تشاء أن تتأمل معالمها ،
في كل معرفة ترغب في بلوغها ،
في كل كلمة تنظر في قولها .
كثير من الأفعال لا تلزمك
كثير من الأفكار لا جدوى منها
كثير من المعارف لا أهمية لها
كثير من الكلمات تكون في غير موضعها

ليس مطلوبا منك أن تفعل كل شيء
ليس مطلوبا منك أن تبحر في معالم كل الأفكار
ليس مطلوبا منك أن تبلغ كل المعارف
ليس مطلوبا منك أن تقول كل الكلمات
ما يهم أن تدرك أبعاد قدرتك المحدودة في الأفعال ، في التأمل ، في المعرفة ، في الكلام .

كل فعل مقترن بزمنه
كل فكرة مقترنة بوقتها
كل معرفة مجدية في أوانها

---

•من قول حسان

كل كلمة تغتني في موضعها
دوما تتأنى بما تود القيام به
تتأنى بما تريد التأمل فيه
تتأنى بما ترغب في معرفته
تتأنى بكلمة تنظر في قولها .

تحت ظلال هذه الشجرة تكمن معالم التركيز التي تمكّنك من جمالية الإرسال والتلقي بمزيد من تؤدة ، بمزيد من جدوى ، بمزيد من رحابة .
وهنا تدرك أن روح الفضيلة تكمن قدر تمكّنك من العطاء ،
تدرك أنك ترتقي في درجات الفضيلة كلما كانت مساحة العطاء لديك أغنى من مساحة الأخذ .

*  *  *

إنك تمضي بمشيئة الله في أرضه ، وليس بمشيئتك ، وحتى لوظننت بأنك تمضي بمشيئتك ، فإن الله هو الذي يبارك مشيئتك أو لايباركها .

خرج النبي صلى الله عليه وسلم في ساعة لا يخرج فيها، ولا يلقاه فيها أحد، فأتاه أبو بكر فقال: ما جاء بك يا أبا بكر.
فقال: خرجت ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم وانظر في وجهه والتسليم عليه.
فلم يلبث أن جاء عمر فقال: ما جاء بك يا عمر
قال: الجوع يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وأنا قد وجدت بعض ذلك، فانطلقوا إلى منزل أبي الهيثم بن التيهان الأنصاري، وكان رجلاً كثير النخيل والشاة، ولم يكن له خدم فلم يجده، فقالوا

لامرأته: أين صاحبك؟ فقالت: انطلق يستعذب لنا الماء، فلم يلبثوا أن جاء أبو الهيثم بقربة يزعبها فوضعها، ثم جاء يلتزم النبي صلى الله عليه وسلم ويفدِّيه بأبيه وأمه، ثم انطلق بهم إلى حديقته فبسط لهم بساطاً، ثم انطلق إلى نخلة فجاء بقنو فوضعه فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أفلا تنقيت لنا من رطبه . فقال: يا رسول الله! إني أردت أن تختاروا أو قال: تخيروا من رطبه وبسره، فأكلوا وشربوا من ذلك الماء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا والذي نفسي بيده من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة، ظل بارد، ورطب طيب، وماء بارد . فانطلق أبو الهيثم ليصنع لهم طعاماً، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا تذبحن ذات در .
قال: فذبح لهم عناقاً أو جدياً فأتاهم بها فأكلوا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هل لك خادم
قال: لا.
قال: فإذا أتانا سبي فأتنا فأُتي النبي صلى الله عليه وسلم برأسين ليس معهما ثالث . فأتاه أبو الهيثم، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: اختر منهما .
فقال: يا نبي الله اختر لي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن المستشار مؤتمن، خذ هذا فإني رأيته يصلي، واستوص به معروفاً فانطلق أبو الهيثم إلى امرأته، فأخبرها بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت امرأته: ما أنت ببالغ ما قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن تعتقه، قال: فهو عتيق!! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن الله لم يبعث نبياً ولا خليفة إلا وله بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالاً، ومن يوق بطانة السوء فقد وقي •

•الحديث رواه الترمذي برقم (٢٣٦٩) في كتاب الزهد. وأورده النسائي مختصراً في السنن الكبرى برقم (١١٦٩٧). تفسير سورة التكاثر. وأخرجه الحاكم في المستدرك (١٣١/٤). ط/ دار المعرفة. وصححه الألباني في صحيح الجامع (١١٧٤/٢).برقم (٧٠٠١).

*  *  *

الذي لايقف على أصل تتقاذفه الأصول ، الذي لايقف على عقيدة تتقاذفه العقائد ،
الذي لايقف على عمل تتقاذفه الأعمال ،الذي لايقف على موقف تتقاذفه المواقف ، الذي لايقف على كلمة تتقاذفه الكلمات .

*  *  *

وأنت في غربتك هناك ، اعلم بأنك لست وحدك ، دوما تذكر بأنك تحمل جزءا مني وجزءا من أمك ، إنك كالطير الذي فر من قلبينا وكبدينا ، يرفرف هناك ساعة ، ويعود يرفرف بيننا ساعة .
البارحة بعد صلاة الفجر أوصتني أمك أن أكتب لك بأنك إن كنت مع الله كان الله معك ، لاتفعل شيئا إلا وتذكر معه الله ، / إن كان الله معك فمن عليك ، وإن كان الله عليك فمن معك / .
ماتزال أمك توقظني لصلاة الفجر ، نصلي معا ، ثم نقرأ شيئا من قرآن الفجر ، ثم نجلس ونشرب الشاي معا إلى أن تدب الحركة في شعاب مكة .

*  *  *

يابني كأني شممت من رائحة كلامك رائحة امرأة تدخل حياتك ، هذا حق لك يابني ، لكن لاتعجل في الأمر . أسوق لك هذا الحديث عن نبينا ليكون عونا لك .

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: "جلست إحدى عشرة امرأة، فتعاهَدْنَ وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً.
قالت الأولى: زوجي لحم جَملٍ غَثّ، على رأس جبل وعر، لا سهلٌ فيرتقى، ولا سمينٌ فينتقل.
قالت الثانية: زوجي لا أثير خبره، إني أخاف أن لا أذَرَهُ، إن أذكره أذكرْ عُجَره وبُجَره.
قالت الثالثة: زوجي العَشَنّق، إن أنْطِقْ أُطلَّق، وإن أسكت أُعَلَّق.
قالت الرابعة: زوجي كَلَيْلِ تهامةَ، لا حَرَّ ولا قَرَّ، ولا مخافة ولا سآمة.
قالت الخامسة: زوجي إن دخل فَهِدَ، وإن خرج أسَدَ، ولا يسأل عما عَهِدَ.
قالت السادسة: زوجي إن أكل لَف، وإن شَرِبَ اشْتَفَّ، وإن اضطجع التفَّ، ولا يولجُ الكفَّ لِيَعلمَ البَثَّ.
قالت السابعة: زوجي عَياياءُ - أو غياياءُ- طباقاء، كلُّ داءٍ له داء، شَجَّكِ أو فَلَّكِ،أو جمع كُلاً لَكِ.
قالت الثامنة: زوجي المسُّ مسُّ أرنب، والريح ريح زَرْنَبْ.
قالت التاسعة: زوجي رفيعُ العماد، طويل النِّجاد، عظيمُ الرِّماد، قريبُ البيت من الناد.
قالت العاشرة: زوجي مالكٌ، وما مالِك؟ مالكٌ خير من ذلك، له إبلٌ كثيراتُ المبارك، قليلات المسارح، إذا سمعن صوت المِزْهَر أيقنَّ أنهنَّ هَوالك.
قالت الحادية عشرة : زوجي أبو زَرْع، وما أبو زَرْع؟ أناسَ من حُليٍّ أُذُنَيَّ، وملأ من شَحْمٍ عَضُديَّ، وبَجَّحَني فبَجَحْتُ إليَّ نفسي، وجدني في

أهل غُنيمةٍ بَشَقٍ، فجعلني في أهل صَهيلٍ وأَطيطٍ، ودائِسٍ ومُنَقٍّ، فعنده أقولُ فلا أُقَبَّحُ، وأرقدُ فأتصبّحُ، وأشربُ فأتقَمَّحُ، أم أبي زرع فما أمُّ أبي زرع؟: عُكومُها رَدَاحٌ، وبيتُها فَسَاح، ابن أبي زرع فما ابن أبي زرع؟: مضجعه كمسلِّ شَطْبةٍ، وتُشْبِعُهُ ذِراعُ الجَفرَةِ، بنت أبي زرع: فما بنت أبي زرع؟ طَوعُ أبيها وطَوعُ أمها، وملءُ كسائها، وغَيظُ جارتها، جارية أبي زرع فما جارية أبي زرع؟: لا تَبثُّ حديثنا تبثيثاً، ولا تَنْقُثُ ميرتَنا تنقيثاً، ولا تَملأ بيتنا تعشيشاً.

قالت خرج أبو زرع والأوطاب تُمْخَضُ، فَلقي امرأةً معها ولدان لها كالفهدين، يلعبان من تحت خَصْرها برمَّانتين، فطلَّقني ونكحها، فنكحْتُ بعده رجلاً سَرِيّاً، رَكِبَ شَرياً، وأخذ خَطِيّاً، وأراح عليَّ نَعَماً ثَرِياً، وأعطاني من كل رائحةٍ زوجاً، وقال: كلي أم زرع ، وميري أهلك، فلو جمعتُ كل شيء أعطانيه ما بَلَغ أصغر آنية أبي زرع .

قالت عائشة -رضي الله عنها : فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : كنتُ لكِ كأبي زرعٍ لأم زرعٍ •

---

•الحديث أخرجه البخاري في كتاب النكاح باب حسن المعاشرة مع الأهل برقم (٤٨٩٣)، ومسلم كتاب فضائل الصحابة - رضي الله عنهم - باب ذكر حديث أم زرع برقم (٢٤٤٨)، وأخرجه النسائي في الكبرى كتاب عشرة النساء باب شكر المرأة لزوجها برقم (٩١٣٨)، وأخرجه ابن حبان برقم (٧١٠٤)، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير برقم (٢٦٥)(٣٥٤/٥).

وأما شراح الحديث فقد قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - في الفتح وقد شرح حديث أم زرع إسماعيل بن أبي أويس شيخ البخاري، روينا ذلك في جزء إبراهيم بن ديزيل الحافظ من روايته عنه، وأبو عبيد القاسم بن سلام في غريب الحديث، وذكر أنه نقل عن عدة من أهل العلم لا يحفظ عددهم، وتعقب عليه فيه مواضع، وأبو سعيد الضرير النيسابوري، وأبو محمد بن قتيبة كل منهما في تأليف مفرد، والخطابي في شرح البخاري، وثابت بن قاسم، وشرحه أيضا الزبير بن بكار، ثم أحمد بن عبيد بن ناصح، ثم أبو بكر بن الأنباري، ثم إسحاق الكاذي في جزء مفرد، وذكر أنه جمعه عن يعقوب بن السكيت وعن أبي عبيدة وعن غيرهما، ثم أبو القاسم عبد الحكيم بن حبان المصري، ثم الزمخشري في الفائق، ثم القاضي عياض وهو أجمعها وأوسعها وأخذ منه غالب الشراح بعده، وقد لخصت جميع ما ذكروه.

وحكى عياض، ثم النووي، قول الخطيب في المبهمات: "لا أعلم أحداً سمى النسوة المذكورات في حديث أم زرع إلا من الطريق الذي أذكره وهو غريب جداً، ثم ساقه من طريق الزبير بن بكار، قال ابن حجر: قلت: وقد ساقه أيضاً أبو القاسم عبد الحكيم المذكور من الطريق المرسلة، فإنه ساقه من طريق الزبير بن بكار بسنده ثم ساقه من الطريق المرسلة، وقال النووي: وفيه أن

رغم كل هذه العزلة التي بدأت تزحف إليك مرة أخرى ، بدأت تأخذ موقعها من حياتك ، فلاتزال الحياة غنية بكل مقومات الدفء ، كل شيء يأتي في وقته ، كل شيء يعزز علاقتك الوثيقة بالله . الله .. ياه كم تشعر براحة وأنت تذكر اسمه ، كم تشعر بقوة عظمته ، قوة عفوه ، قوة محبته للإنسان .

لقد علمك ياهجري وكنت جاهلا ، أعطاك كل ألوان الطعام والشراب ، أعطاك زوجة كنت تحلق معها في عالم من النشوة ، أعطاك ابنة . لو لم يكن يحبك لما أعطاك شيئا ، إنك الآن تمشي على قدمين لأي مكان تريد ، تسمع بأذنين ماترغب في سماعه ، ترى بعينبن ماتبغى أن تراه ، تنظر إلى تيماء فيرفرف قلبك طربا ، تزورها في بيتها وكأنك تدخل بابا من أبواب الجنة .

كلما مضيت على قدميك ، تذكّر بأن الله يحبك ،
كلما سمعت بأذنيك ، تذكّر بأن الله يحبك ،
كلما نظرت إلى تيماء ، تذكّر بأن الله يحبك ،
كلما تناولت طعاما شهيا ، تذكّر بأن الله يحبك ،
كلما قرأت صفحة نافعة ، تذكّر بأن الله يحبك ،
وكلما تذكرت بأن الله يحبك :
تذكر بأن الله يحبك ،
تذكر بأن الله يحبك ،
تذكر بأن الله يحبك .

كم كنت تشعر بوحشة ، فتهرع إلى كتاب ربك ،وما إن تقع عيناك على صفحاته ، حتى ينتابك أمن ، وتسترخي في سكينة لاحدود لها ، ثم تغفو ، كأنك تغفو بين

---

الثانية اسمها عمرة بنت عمرو، واسم الثالثة حنى بنت نعب، والرابعة مهدد بنت أبي مرزمة، والخامسة كبشة، والسادسة هند، والسابعة حنى بنت علقمة، والثامنة بنت أوس بن عبد، والعاشرة كبشة بنت الأرقم، والحادية عشر أم زرع بنت أكهل بن ساعد .

يديه .
الآن يـاهجري ، أنـت مقبـل علـى مرحلـة جديـدة مـن مراحـل حياتـك ، وبربارا تأتى في بدء هذه المرحلة لتفرض حضورها عليك ، بربارا التـي ظهـرت فـي اليـوم الأول الـذي غـادرت فيـه تيمـاء ، هـل تظـن بـأن ذلـك مصادفة يا بشري أم ترى بأن كل شـيء يـأتي فـي وقتـه المناسـب بمشيئة ربك . يا لتلك العصفورة ، كأنها ريحانة من الجنـة ، لـم تكن تتخيل بأنك ذات يوم سترى امرأة بكل هذه الرقة ، حتى صوتها كأنه يخرج من قلبها ، حتى نظراتها تتحول إلى دموع في عينيها .
أجل ياهجري تذ كرّ بأن الله أعطاك كل شيء ، يا لتلك العظمة ، يـا لقوة المحبة ، وأنت تدرك كل الإدراك أنك لاتستحق كل هذه العطايا التـي لـم تكن أنت ذاتك لتمنحها لنفسك ، بيد أن الله منحها لك بقوة رحمتـه ، وقوة محبته .
لقد علمك الله ياهجري ، مفهومك للجسد أخذ مساره الصـحيح ، مفهومك للمال ، مفهومك للصحة .
لقد عانت مارغريتا المسكينة كل هذه المراحل التي كنت فيها مضطربا تتشكل فيها معالم نضجك .
كنـت كـل يـوم تـأتي فراشـها ، كنـت تزعجهـا وتسـبب لهـا الاضـطرابات الجسـدية والنفسـية بسـبب شـهوتك التـي كانـت تبـدو عدوانيـة فـي بعـض الأوقات . لكنها كانت تحتمل وتلبي لك حتى تشعر باكتفاء ، ثم فـي اليـوم التالي كأن شيئا لـم يكن ، فتـأتي إليهـا كأنـك تـأتي أول مـرة دون أن تقدر بأنهـا تعـاني ، أو حتـى أنهـا تمـر بوضـع صـحي لايسـمح لهـا مثـل هـذا الانفعـال . مارغريتـا التـي أحبتـك كـل الحـب ، وتعلقـت بـك كـل التعلـق . كنـت تعتـرف بـأن حبهـا لـك هـو أقـوى أضـعاف المـرات مـن حبـك لهـا ، تعلقها بك كان أقوى أضعاف المرات من تعلقك بها ، لـذلك كانـت تخـاف أن تخسرك أضعاف المرات مما كنت تخاف أن تخسرها .
الآن يـاهجري شـعورك مختلـف وأنـت تنظـر إلـى بربـارا ، بربـارا التـي تضعف أمامها كل الضـعف ، تشـعر بقوة المحبـة نحوهـا ، تريـد دومـا أن

ترفعها بين ذراعيك كريحانة تشم رائحتها أينما كنت ، لذلك ياهجري أصررت أن تأخذ شريط فيديو الحفل لتنظر إليها وهي جالسة إلى جانبك ، تنظر إلى ملامحها ، تتأمل حركاتها وتتخيل بأنها تكون في بيتك كما أن صورها في بييتك ، تتحرك في بيتك كما أنها تتحرك في الجهاز الذي في بيتك .

اتصلت به تيماء وقالت بأن بربارا عزمتها مع زوجها إلى مطعم لتناول العشاء ، وأصرت أن يأتي معهما .
خفق قلبه مرة أخرى أمام تخيل ذاك الوجه مرة أخرى ، أمام تلك النظرات ، أمام ذاك الصوت ، أمام تلك المصافحة ، وإذا كانت تريد أن تحتفي بصديقتها بمناسبة زواجها ، فما الذي يجعلها تصر على دعوته كما أكدت تيماء على ذلك ثلاث مرات متتالية .
كان الوقت ساعة العصر ، وثمة متسع من فراغ حتى يأخذ قسطا من راحة استعدادا لسهرة قد تطول حتى الصباح كما هي العادة في هذه البلاد .
استلقى علىالسرير وغار في نوم عميق إلى أن استفاق في السادسة مساء وبدأ يستعد للخروج لأن الموعد يكون في التاسعة مساء ، سوف يمر إيلاف مع تيماء ، ويذهب معهما إلى المطعم الذي تنتظر فيه بربارا .
في السابعة والنصف اتصل به صديقه في العمل / ميشيل / وقال بأنه يرغب في زيارته بعد نحو ساعة .
ارتبك أمام هذا المطلب ، لكنه حسم الأمر بسرعة مرحبا به ، ثم ما لبث أن اتصل بابنته يخبرها اعتذاره عن العشاء بسبب زيارة غير متوقعة لصديق .

لكن ذلك لم يمنع بربارا من الاتصال به بعد ثلاثة أيام وقالت بأنها أرادت أن تطمئن عليه .
وقبل أن تختتم حديثها قالت : الإسلام كطريقة للحياة .
أجل يا سيدتي ، الإسلام كطريقة للحياة .

الإسلام ياهجري ، ذاك الذي يجعلك تشعر بكل هذا الامتلاء نحو الحياة ، بكل هذا الاعتزاز .
لقد جاء ذاك الرجل القرشي النبيل ليقدم للعالم طريقة جديدة للحياة ، جاء وهو يدرك بأنه يتحدث عن مفاهيم جديدة ، عن أفكار جديدة ، عن حياة جديدة . يدرك بأنه لايتجه إلى قومه قدر ما يتجه نحو رحابة العالم ، وأن هذه الطريقة تبقى متجددة لإنسان كل زمان ومكان .
كنت ترغب في أن تقول لبربارا بأنك تميز كثيرا بين القمع ، وبين السيطرة على الأهواء ، عندما تميل نفسك إلى أمرغير سوي وتتمكن من عدم الاستجابة لها ، فإنك تحقق قوامتك عليها ، وتكون بطلا أمامها ، وتثبت لها بأنك قادر على الجلد ، والتأني والحكمة .
الذي يجري وفق أهوائه تقوده هذه الأهواء إلى منعرجات غير محمودة ، في حين أن الذي يتحكم بأهوائه يحقق المجد والتوازن لذاته ولنفسه معا .
وهكذا يمكن له أن يدرب نفسه على أنوار القيم السامية فتبدأ من تلقاء ذاتها تميل إلى تلك القيم التي تعتادها ، وتنفر من الرذيلة .
النفس التي تستمر في الرذيلة تجعل من صاحبها رذيلا ، والنفس التي تستمر في الفضيلة تجعل من صاحبها فاضلا .
سيكون أمامها هنا أن تتمكن بشيء من جلاء التعرف على الناس من خلال إلقاء نظرات على الوجوه ، من خلال تبادل أطراف حديث . هنا ستمتلك شيئا من قوة النفوذ لترى وتسمع وتحدس .
سيتيح لها ذلك أن ترى التشابه في وجوه الذين يؤازرون الخير في العالم ، إلى جانب التشابه في وجوه الذين يؤازرون الشر .

التشابه في الأصوات ، في الحركات ، في ردات الفعل ، في حالات الانفعال ، في الانضباط ، في المكر ، في الصدق . ستدرك عندذاك بأن الله هو الذي يميز الخبيث من الطيب وسيكون بوسعها عندذاك أن تختار أي المنهجين لأن الإنسان يمكن أن يتحول من الخبث إلى الطيب ، ويتحول من الطيب إلى الخبث ، وعندها تتحول معالم الوجوه أيضا لأن الوجوه تتبع النفوس ، وحيثما كانت تحولات النفوس حلت معالم الوجوه .

كان يرغب أن يقول لها بأن لاشيء يجعلها تخفف حالة النرجسية في ذاتها قدر تأملها في ملكوت الرحمن ، عندئذ سيكون بإمكانها أن تدرك بأن الله هو لكل الناس ، وكل الناس هم لله ، والناس جميعا يكملون بعضهم البعض ، ويتسلسلون عبر بعضهم البعض ، وتسري في عروقهم دماء بعضهم البعض .

أجل ياهجري إنها صفحات القرآن المنيرة التي تضع لك النقاط على الحروف لتنضبط الحروف المشتتة وتأخذ سعة معانيها .

كم مرة شعرت فيها بتيه ، بيد أن القرآن كان رشيدك ، تردد في نفسك : ( ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب ) . التقوى ، كم تأملت في معاني هذه الكلمة ، كيف تكون تقيا ، حتى يجعل الله لك مخرجا ، يجعل لك مخرجا من حالة نفسية كئيبة ، من ألم جسدي ، من ضيق في اليد ، من تشتت عاطفي ، من ظلم ظالم ، من إفك أفاك .

وكانت التقوى تزداد استيعابا لكل عمل خير يمكن أن تقوم به ، أن تقدم عونا لشخص سألك العون ، أن تكون على خلق ، أن تكون أمينا ، أن تكون صادقا وتردد قول أمية بن أبي الصلت :

إذا كان أصلي من تراب فكلها
بلادي وكل العالمين أقاربـــي

تحب الناس جميعا ، وتبتغي لهم النفع ، وترى ما يمكن لك أن تفعله لخيرهم ، عندما تحصل على شيء عليك أن تفكر كيف تقدم أيضا ، حتى لو أمطت أذى عن طريق ، حتى لو ابتسمت في وجه شخص ألقى عليك السلام . كل شخص يمكن له أن يفعل شيئا مجديا للآخرين حتى لوكان قعيد الفراش .
عندما تكون مسلما ويتحقق فيك الإسلام ، فإنك تعيش حالة الأمان ، تستمدها من قوة ربك الذي أنت مسلم له .

تذكر كيف أن تيماء كانت تبتسم وهي ترى شخصا يوجه النقد للنبي بأنه كثير الزواج . كان ذاك الشخص يتحدث في برنامج تلفزيوني . فقالت تيماء : كأنه الرجل الوحيد في هذا العالم الذي تزوج أكثر من مرة ، منذ بدء الخليقة والرجال يتزوجون أكثر من امرأة ، في زمنه كان يحدث هذا ، وحتى اليوم يحدث هذا ، حتى هذا الذي يتحدث لعله تزوج أكثر من امرأة ، تعرف بأكثر من امرأة .
إذا كان عيسى لبث عازبا ، هل هي دعوة ليعيش الرجال عزابا ، وإذا كان محمدا تزوج بأكثر من امرأة هل هو يدعو جميع الرجال ليتزوجوا بأكثر من امرأة .

لايدري كيف امتدت يده إلى سماعة الهاتف ليتصل بتيماء . تناهى صوتها المألوف إلى سمعه : أهلا بابا ، اشتقت إليك .. ماذا تفعل الآن .. تعال إلينا .. لاتتردد ، اتخذ القرار ونفذه الآن .
ضحك قائلا : كما تشائين ، سأكون بعد قليل عندك .
هز رأسه مبتسما وبذات الوقت شاكرا لله هذه النعمة الكبرى ، نعمة أن تكون له ابنة بكل هذا البر .
ركب سيارته متجها إلى المخزن يأخذ بعض الحلوى ويتجه صوب بيتها .

كانت الساعة تشارف على السادسة مساء عندما وصل ، ولم يكن إيلاف موجودا ، قالت تيماء بأنه سوف يعود في التاسعة .
إنه بيت ابنته ، ويا لهذه المشاعر التي تغمره ، وتخيل كيف أن السنوات مضت مسرعة ، تخيلها في مختلف مراحل العمر ، إنها ابنة واحدة ، لكنها ملأت عليه العالم ، عندما ينظر إليها يدرك كل أبعاد عبارة / قرة العين / نظرات تحمل خصوصيتها ، فلا يملك إلا أن تنذرف دموع من عينيه . هاهي تيماء تتحرك أمامه ، تصنع له القهوة ، تبادله أطراف الحديث ، تملأه بعاطفة الأبوة .. ياه .. يالعظمة الله ، يالقوة محبته .
جلست تيماء إلى جواره وهي تنظر إلى عينيه المكتظتين بالدموع وقالت : ألا تفكر يا أبي أن تأتي وتعيش معنا .

- لا يابنتي ، تعرفين بأنني اعتدت على طقوسي الخاصة في الحياة .
- قدر ما أنا سعيدة ، لدي حالة متواصلة من القلق عليك ، كيف تتناول الطعام ، كيف ترتب البيت . ولا أريد أن أتخيل لحظات يقظتك فجرا للصلاة وأنت وحدك .. كنت دوما تحدثني عن وجود أمي معك في تلك اللحظات ، الآن لمن تتحدث ؟ !

ولاتدري لماذا حضرت بربارا إلى مخيلتها ، بربارا ، الفتاة التي تعيش نمطا مختلفا من الحياة . كانت أحيانا تزورها في بيتها وتقول : أفضل ما يمكن للمرء أن يفعله هو أن يقيم وحده عندما يجد حالة من اللا انسجام بينه وبين من يعيش معه . عندما طلق أبي أمي ، أحسست بشيء من الغربة وقع في البيت رغم أنني كنت في العشرين من عمري .
بعد ستة شهور تزوج أبي ، وبعد نحو سنتين تزوجت أمي أيضا .
لم يكن أمامي إلا أن أتخذ مثل هذا القرار الذي بدا أمامي مجديا .
كانت بربارا تتحدث بصوت خافت لايكاد يخرج منها ، وكانت تصغي إليها بمزيد من هدوء وكأنها تستمع إلى موسيقى بالغة الهدوء في الثانية ليلا .

كانت تخبرها بأن جل وقتها يمضي في العمل ، الفترة الصباحية تعمل معها في المركز الهندسي ، ثم تعود إلى البيت تتناول الطعام على عجل ، وتخرج على الفور لعملها الثاني في معهد تعلّم برامج / الكومبيوتر / حيث تعطي الدروس في برامج الكومبيوتر حتى الثامنة مساء لتعود إلى البيت منهكة ، تتناول لقمة سريعة لتستيقظ صباحا ، أما يوم العطلة فتقضيه نائمة في البيت .
كانت أحيانا تتحدث لها عن أبيها الذي ينتمي إلى أصل ألماني ، وعن أمها البريطانية ، ذاك الأب الوديع الذي كان مقبلا على الحياة ، يتناول اللحم بشكل يومي ، عند الظهيرة كان يحتسي علبتين من الجعة ، وفي المساء كأسين من الويسكي ويستمع إلى الأغاني من التلفاز بصوت مرتفع .
أحيانا كان يثمل فيغني ويصفق . وحتى الآن لاتدري ما الذي حدث ليقدم على الطلاق بعد عمر من الزواج .

تحدثت تيماء مع أبيها بشيء من الصراحة بأن شخصية بربارا تناسبه ، وقد استطاعت بحدسها أن تدرك إعجابها الشديد بشخصيته .
قالت لها بأن الاستقرار النفسي مع رجل مستقر نفسيا يتقدمها في السن ، هو الإشارة الأولى من إشارات زواج ناجح .
ولم تتردد في أن تطلب منها كي تعطيها بعض الدروس في تعلم اللغة العربية ، إلى جانب التحدث لها عن الإسلام ، وقالت بأنها استطاعت أن تقرأ القرآن باللغة الانجليزية ، وهي سعيدة بذلك ، وحاليا تقرأ بعض كتب الأحاديث ، وكذلك تستمع إلى القرآن وتشعر براحة نفسية هائلة .
هذه المعلومات الجديدة سرته كثيرا ، وبدأ يشعر بالإعجاب بهذه الشخصية التواقة إلى المعرفة .
وعندما أخبرها عن أفكار تراوده بشأن مغادرة لندن والعودة إلى مكة ، قالت بأن إيلاف أيضا ألمح لها بشيء من هذا ، وأنه يفكر بالعودة إلى

مكـة ، إلا أنهـا كانـت متـرددة لأنهـا لـم تكـن تتصـور أن تتركـه فـي هـذه الغربة وحيدا .

بعد شهراتصلت به بربارا لتطمئن عليـه ، وثـب قلبـه طربـا وهـو يتحـدث لصوتها ، وهو يتخيل بأنها سوف تصبح زوجته ، بربارا التي تفتح أمامـه بابا جديدا من أبواب الحياة وتدخله مرحلة جديدة .

- ياسـيدي لاأخفيـك بـأنني أعـيش حالـة مـن فـراغ أعمـى رغـم كـل محاولاتي للعمل المتواصل حتى أتهرب من هذا الشعور بـالفراغ .
- إنـه ذات الفـراغ الـذي ينتـابني ، لكـن علـى الإنسـان أن يـدرك بأنـه يمر بمراحل متنقلة في حياته ، بالنسبة لـي فـإن الـدين يخفـف عنـي هذا الشعور، عندما أجلس بين يدي الله خاشعا ، أشعر بـأن نفسـي تغتسل بنور الله ، ثم تنتابني حالة هائلة من الصفاء وكـأنني مولـود للتو ، لاأحد لنا غير الله ياسيدتي .

أحس برغبة في لقائها ، وبدا له أنها ترغب في لقاء كهذا ، لكنـه أبعد كل فكرة لـدعوتها إلـى البيـت ، ولايـدري كيـف قـدم لهـا دعـوة للـذهاب إلـى السينما .

فـي المسـاء جلسـا فـي السـينما ، وبـدأت تتحـدث لـه عـن إعجابهـا الشـديد بشخصيته ، وتحدثت له عن المرحلة الحياتية الجديدة التي تدخلها ، وعـن جهود تيماء وهي تعلمها اللغة العربيـة ، وتنتقـي لهـا كتـب الأحاديـث التـي تعرفها بالإسلام .

وقالت بأنها تمتلك الشجاعة الكافية لتصارحه بإعجابهـا الشـديد بشخصـيته وأنها تمتلك الإرادة للعيش معه ، لاترى أي مانع فيما لوتقدم للزواج منهـا ، وأنها مستعدة للذهاب معـه إلـى مكـة والعيش هنـاك ، خاصـة وأن تيمـاء وزوجها أيضا سوف يعودون إلى مكة كما علمت منها .

- أتشرف بعلاقة سامية كهذه ياسيدتي ، ولكن هل كان الوقت كافيا لاتخاذ قرار كهذا ؟
- لقد درست الأمر من كل جوانبه ، وأظنني لن أكون سعيدة إلا وفق الخيار الذي استقررت عليه .

عندئذ قال بأنه سمع من تيماء حديثا بصدد عودتها إلى مكة ، بيد أنه لم يدقق في الأمر ، وظن بأنها تقول ذلك لأنه أخبرها بنيته للعودة إلى مكة والعيش فيها بعد أن اطمأن عليها .

قالت بربارا : بل هي جادة ، لقد أخبرتني بكل شيء .

هل ما يراه ويسمعه هو الحقيقة ، هل حقا سوف يتزوج من بربارا وهي تأتي وتوافق على زواجها منه ، وأن إيلاف أيضا يقرر العودة إلى مكة.

لم يكن ليصدق ذلك لولا أنه بالفعل رأى نفسه مع بربارا ، وتيماء ، وإيلاف يمشون في طرقات مكة .

## وهـج القبلـــة

تنفتح أمام دروبها خطوات إشراقة الحياة وهي فراشة تكتشف للتو ألوان الزهور ،
كل شيء يبتسم لها ، وهي تبتسم لكل شيء تراه .
إنها لا تنتمي إلى سلالة ملكية ، بيد أن أباها لم يدخر جهدا حتى يوفر لها حياة رغيدة شبيهة بحياة الأميرات اللاتي يعشن في أبهة تلك القصور البديعة في منعرج هذه المملكة الصغيرة .
سنانيك أفندي ، ليس من شخص في أرجاء هذه المملكة لم يسمع به ، إنه خيّاط أميرات القصر المفضل ، وقد ورث هذه المكانة عن أبيه الذي ورثها عن جده ، والذي بدوره ورثها عن جده ، ويُحكى في سائر أنحاء المملكة أن ذاك الجد المؤسس لهذه المهنة كان من الرجال الذين آزروا الملك العائد الأول إلى هذه المملكة منذ ١٥٠ سنة .
هذه المملكة التي شاءت الظروف أن تعود مرة أخرى إلى آلـ تتر على يد هذا الحفيد الذي نجح في إعادة مجد العائلة ونفوذها بعد مئة سنة من الاستيلاء عليها من قِبل آ لـ بِـشر .
عندما بلغ سراي الدين العقد الثاني من عمره أقسم لأبيه بأنه لن يهدأ له بال حتى يستعيد مُـلك أجداده من هؤلاء الذين احتلوا هذه المملكة مستغلين بعض الخلافات التي نشبت بين أفراد الأسرة الحاكمة آنذاك ، هذه الخلافات التي جعلتها في وهن ، وجعلتها عرضة لاجتياح آلـ بِشر .

وبدأ سراي الدين يعقد علاقات وثيقة مع أسرة آلـ زعفران الحاكمة في إمارة ( زعفران ) المجاورة ، معتمدا على العلاقات القديمة والقويمة بين العائلتين حينما كان جده ملكا .

ومن جهتها كانت إمارة ( زعفران ) قد تسرب إليها نبأ يلمح إلى أطماع آل بشر التوسعية ، حتى أن الأمير نفسه لدى زيارته الأخيرة منذ سنة إلى المملكة المجاورة لمس أن الملك يحدّثه بلهجة فوقية أشعرته بأنه أمير في إحدى إمارات المملكة ، وليس مالكا لإمارة مستقلة يتخذ القرارات وينفذها بكامل حريته الشخصية .

أحس الأمير بهذه اللهجة الفوقية عندما طلب منه الملك أن يقطع علاقات أسرته الوثيقة بآل تتر لأن هذه العلاقة قد تشكل لهم قوة وتعزز في نفوسهم أطماع العودة إلى الملك . وعندها ، أضاف الملك بلهجة مهددة : إذا لبثتم في إيواء الماردين الذين يكنون عداء لنا ، ويشكلون خطرا على أمن مملكتنا ، قد تنشب حرب فتاكة بين مملكتنا وإمارتكم يا سمو الأمير ، هذه الحرب التي تعرفون جيدا مَن سيكون منتصرا فيها .

هؤلاء سوف يجلبون لكم ما هو أكثر من وجع الرأس .

عندها لم يملك الأمير نفسه ، فنهض مقاطعا الزيارة بعد ثلاث ساعات ، وكان من المفترض أن تستغرق ثلاثة أيام ، ورفض حتى وجبة الغداء عائدا إلى إمارته برفقة الحاشية التي تسرب إليها ما حدث مع الأمير والملك .

بعد أيام قليلة كان الخبر منتشرا في أرجاء الإمارة التي غدت بالفعل تعزز رجالها على الحدود تحسبا لأي طارئ ، وكذلك تستعين بأي قوة يمكن أن تقف إلى جانبها ، إضافة إلى أنها بدأت مرحلة جديدة من توثيق علاقات قويمة مع إمارات وممالك ودول من مختلف أنحاء الأرض .

هذه الأحداث كانت تثلج صدر سراي الدين الذي استطاع أن يشكل حزبا سريا من خيرة شبان أسرته في المملكة ، هذا الحزب الذي سوف يتحول إلى جيش إذا حدث وتمادى الملك على الإمارة من ناحية ، ومن ناحية أخرى سوف يكون الدعامة الفقرية عندما يقرر سراي الدين الحراك

الفعلي من أجل إعادة الملك ، وفي كلا الحالين سوف تقف الإمارة إلى جانبه للتخلص من أطماع آلـ بشر ، وعودة العلاقات الطبيعية الآمنة بين الإمارة والمملكة .
استغرق غياب سراي الدين خمس سنوات لم ير فيها المملكة سوى ثلاث مرات ، حيث كان يأتي سريعا على خيل مع بعض أعوانه ولا يمكث أكثر من يومين .

بدأت السنوات تمضي وسراي الدين يزداد قوة ونفوذا وشعبية ، حتى أنه شكّل فرعا لحزبه في الإمارة ، وغدا الأمير يقدّم له ما يشاء من قوة ونفوذ ومعلومات .
ومن الناحية الأخرى ذاع صيت سراي الدين في أرجاء المملكة ، فلم يتردد الملك في إرسال وفد إلى الأمير يطلب منه تسليمه كونه أحد مواطني مملكته الذين يعملون من أجل تخريب أمن المملكة في الخارج .
لكن الأمير لم يستجب لطلبه ، فأغاظ ذلك الملك وأرسل مَن يقول للأمير بأنه إن لم يسلّمه للمملكة بالمعروف فإنها قادرة على أخذه بالقوة .
ما إن عاد الوفد حتى اجتمع الأمير مع سراي الدين وأخبره بأن الأيام القادمة سوف تكون حاسمة بينهم وبين المملكة ، وكان الأمير يدرك بأن أطماع الملك لا تقف أمام سراي الدين ، بل إنها الخطوة الأولى للتنازل ولانتزع السيادة منه .
فهو إما أن يبقى سيدا ، أو يتحول إلى عبد مأمور ، وعندها سوف تتحول الأسرة كلها ، ويتحول الشعب كله إلى عبيد لدى الملك ، ولم يتردد الأمير من مصارحة ولي عهده والمقربين إليه بأن القضية هي أبعد من تسليم سراي الدين للملك ،
إنها قضيته الشخصية للحفاظ على سيادة إمارته ، فالملك يريدها إمارة تابعة له ، ويكون فيها الأمر والناهي .

أمّا سراي الدين فسوف يكون الشخص الذي من خلاله تطيح الإمارة بالملك ، فهو يمتلك جيشا قويما سوف يحارب دون هوادة حتى يستعيد المُلك .
فإن لم يتحركوا سريعا ، سوف يتحرك الطرف الآخر ، وأن يبدأ الهجوم ، خير له من أن يتلقاه ، فالذي يهاجِم يتمتع بمعنويات أعلى من الذي يهاجَم ويباغَت بالحرب وهو نائم في سريره .
كانت أيام قليلة من الاتصالات المكثفة بين سراي الدين وحزبه في المملكة إلى أن أعلن ساعة الصفر ، وأن الليلة القادمة سوف تكون حاسمة .
مع المساء ركب سراي الدين خيله الأصيل الذي به سوف يعيد مملكة ، ويتبعه رجال من خيرة رجاله ، مضى وهو يدرك بأنه يمضي نحو مستقبله ومستقبل أسرته ، وما إن بلغ تلك الأراضي التي تتفوح بأحب الروائح إلى قلبه حتى تنفس الصعداء وتمتم في سريرته : الآن يا أرض آبائي وأجدادي جئت من أجل أن أستردك ، فإما أن أنجح ، وإما أن أدفن في ثراك المبارك ، أما وأني عاهدت نفسي بأنني لن أتركك ثانية .
في هذه الأثناء كان الحزب الذي تحول إلى جيش مسلح في انتظار وصوله وتلقي إشارة الانطلاق .
إنها الأرض المباركة التي تمضي في رحابها يا سراي الدين ، الأرض تتفوح بتاريخ أسرتك ، الإنسان دون أرض لا يساوي شيئا يا رجل ، وهو يتساوى في كثير من المشاعر مع المسلوب منه العرض .
إنها أكبر قضية يمكن لك أن تنتصر فيها ، أو تخفق فيها ، ليست ثمة قضية أهم وأعز أيها الرجل الذي تعقد عليه أسرة كاملة كل آمالها .
الرجال الآن ينتظرون منك إشارة أولى للانطلاق ، تلك الإشارة التي سوف تسري فيهم كالريح .
مع بزوغ الضوء كان سراي الدين يقف وسط ثمانية رجال ينتظرون وصوله على أعصابهم في دار الخياط مفتي الزاهد الذي لا ينتمي لأسرة

آلـ تتر ، بيد أنه يواليها خفية وذلك تجنبا لأي شبهة لأن بيوت أفراد الأسرة هي تحت المراقبة خاصة في هذه المرحلة العصيبة .
كان مفتي الزاهد هو الرجل المخلص لهذه الأسرة ، يسعى في الناس شارحا لهم أفضالها حينما كانت تملك البلاد منذ نحو قرن من الزمن ، كانت تبسط الأمن في الناس ، لكن جاء من أعاد البلاد ألفي سنة نحو الخلف ، عاد الناس إلى الخرافات وقطع الطرق ، انتشرت الأوبئة ، وأصبحت حياة الناس كحياة الدواب في حالة من الفوضى واللاأمن .
كان الناس بمن فيهم الدراويش والبسطاء يستمعون إليه ويتمنون العودة إلى تلك الأيام الخوالي .
مع بزوغ الضوء إلى أرجاء المملكة ، امتلأت الطرقات بأصوات تقول بأن المملكة عادت إلى آلـ تتر ، وأن سراي الدين هو الملك الجديد على هذه المملكة ، أمّا أسرة آلـ بِشر سوف تعيش كبقية مواطني المملكة ، لها ما لها من امتيازات ، وعليها ما عليها من واجبات ، إلا مَن أراد أن يخل بالأمن فسوف يسلّم إلى القضاء .
بعد ثلاثة شهور من استقرار الملك الجديد صدر أمر ملكي بتعيين مفتي الزاهد خياطا خاصا لأميرات القصر الملكي ، وأهدى إليه الملك بصفة شخصية بيتا جوار القصر ، وحصانا أصيلا ، وتم تخصيص حارسين شخصيين له ، وخادمين في بيته .
من يومها ، وكما أن المُلك ينتقل من ملك إلى آخر من أبناء الملك المؤسس ، فإن موقع مفتي الزاهد أفندي أيضا ينتقل بما يشمل من امتيازات من شخص إلى آخر من أبناء الجد المؤسس لهذه المهنة ولهذا الموقع .
ولكن سنانيك يشعر الآن بأنه سوف يُحدث انقلابا عل هذا التاريخ ، وسوف يكون نقطة التحول الكبرى في هذا الانقلاب ، ففي الشهر الماضي بينما كان خارجا مع ابنته فلك البالغة من العمر عشرين سنة ، لمحها الملك سلسبيل وهي خارجة مع أبيها من ركن الأميرات ، ويبدو

أن قلبه خفق لجمالها . وقف سنانيك وألقى التحية على جلالة الملك ، وما لبثت ابنته أن حذت حذوه ، لكن الملك طلب إليه الحضور .
تقدم سنانيك مع ابنته مقبلا كف الملك دون أن تحذو ابنته حذوه في القبلة .
قال سنانيك بشيء من الإرباك : هذه فلك ابنتي يامولاي ، كانت تصطحبني إلى قصر الأميرات ، إنها تساعدني في عملي .
لم يصدق الملك ما ينظر إليه من سحرية الجمال ، نظر إليها تلك النظرة الثاقبة التي أخجلتها ، ثم ما لبث أن هز رأسه وأذن لهما بالانصراف .
لبث ينظر إليها وهي تمضي بخطوات واثقة مع أبيها ، ومع كل خطوة يخفق قلب الملك . رغم زواجه مرتين لم يسبق له أن تذوق لذة هذه المشاعر وهو ينظر إلى امرأة ، أدرك للتو بأنه شيء يخص الحب : أجل إنه الحب ياسلسبيل ، الحب الذي لبثت طوال عمرك محروما منه ، امرأة كهذه جعلت قلبك يتقافز فرحا وكأنك في العشرين رغم دنوك من العقد الخامس .
ولم يستطع أن يتجاهل شعوره لبريهات بأنه لحظتذاك أحس بأنه حارس يقف في حضرة ملكة ، ولأول مرة يتذوق لذة الخشوع في حضرة بهاء الجمال .
ارتمى جسده على كرسي في حديقة القصر تحت شجرة نارنج يتأمل ملامح ذاك الجمال الذي علق في ذاكرته ، يتأمل تلك المشية الملكية ، تلك القامة المتناسقة ، ذاك الشعر الأسود ، الأنامل المزينة بالخواتم النفيسة ، تعلوهما يدان مزينتان بأساور ذهبية برّاقة ، ورحابة الصدر تمتلئ بسلاسل مرصعة بأحجار كريمة ، تمشي كأنها شجرة مرجان .
عندئذ راح يسأل عنها ، فعرف أنها فتاة خجولة ، كثيرة الصمت ، محافظة ، كثيرة القراءة ، تحب سماع الحكايا والقصص ، حتى أن لها صديقة محببة لديها تدعى كروان دوما تروي على أسماعها القصص التي تسعى إليها من أجل صديقتها ، ويُعرف عنها بأنها تخاف أكثر ما

تخاف من الوقوع في انزلا قات الكلام مع الآخرين ، ،لذلك أنها تميل إلى أن تسمع أكثر مما تتحدث .
عرف للتو بأن سنانيك له هذه الابنة الوحيدة مع ثلاثة أولاد .
بعد عشرة أيام من التفكير طلب الملك سنانيك أفندي إلى ديوانه مساء يوم الجمعة القادم . وكانت ثمة ثلاثة أيام باقية على حلول يوم الجمعة ، تلك الأيام التي مضت على سنانيك وكأنها ثلاث سنوات بسبب المخاوف التي بدأت تراوده ، فهل سمع الملك عنه شيئا ويريد أن يوجه إليه لوما ، أو حتى عقابا ، هل يريد أن يستغني عن خدماته بعد هذه الفترة الطويلة من الخدمة والإخلاص ، هل وجد خياطا أفضل وأمهر منه لأميرات القصر .
وغدا في دوامة من أمره دون أن يخبر أحدا من أفراد أسرته بما هو فيه من تيه وقلق وكأن / الريح تحته / .
قال له حاجب الملك بإيجاز : سيدي سنانيك أفندي ، جلالة الملك يريدك في القصر مساء يوم الجمعة القادم .
ارتعدت أوصاله وهو يريد معرفة شيء يمكن أن يبني عليه تكهناته ، بيد أن الحاجب أكد له بأنه لايعرف أي شيء عن الأمر .
عندها قال سنانيك وكأنه يرجوه : هل كان مولاي سعيدا ، أم مستاء عندما وجه إليك الأمر ؟
قال الحاجب : كان في حالة شرود .
وقد لاحظ كل مَن في البيت هذا التبدل الطارئ عليه ، لكنه لم يشأ أن يفسد عليهم سكينتهم ، وآثر أن يتحمل لوحده القلق .
في أمسية الجمعة المرتقبة ، تهيأ سنانيك لدخول ديوان الملك وهو في حال يرثى لها من اضطراب ، ويستطيع الناظر إليه أن يكتشف بيسر أن نصف صحته قد سقط عنه ، إلى جانب تدهور معنوياته ، وشحوب سحنته ، وكأنه متجه إلى نهايته الحتمية .
عندما ولج الباب باحثا بعينيه عن الملك ، وربما منتظرا لكمة من مكان مجهول ، أحس بصدمة مباغتة وغير متوقعة البتة .

الملك بنفسه ينهض من مجلسه ، يتقدم إليه ويستقبله بالمصافحة الحميمية وكأنه أحد أفراد الأسرة الحاكمة ، وقد كان غائبا منذ سنوات وعاد للتو.
تجحظت حدقتاه غير مصدق لِما يرى .
بعد هنيهات من حالة الدهشة المسيطرة عليه ، وتقديم الضيافة الملكية له ، أصرف الملك كافة الخدم والحرس ، ثم دعاه للجلوس على أقرب كرسي جوار العرش ، وهو الكرسي الذي لايجلس فيه غير ولي العهد ، أو كبار ضيوفه من ملوك وأمراء وشخصيات بارزة .
بجلوسه أخبره الملك بأنه يستحق الجلوس في هذا الكرسي ، وأن يلقى التكريم احتراما لتاريخ جده / مفتي الزاهد / الذي استضاف الملك المؤسس في بيته ليلة استرداد المُلك المعلومة مخاطرا بحياته وحياة أسرته ، حتى الرواة الذين يوثّقون لتلك الحقبة فإنهم يذكرون موقف مفتي الزاهد .
- أنت الآن تريد أن تعرف سبب دعوتي لك في مجلسي هذا ياسنانيك أفندي ، لكن قبل ذلك اسمع هذه الحكاية التي سوف أرويها لك :
يحكى عن أبي عبد الله النميري أنه قال : كنت يوما مع المأمون وكان بالكوفة ، فركب للصيد ومعه سرية من العسكر ، فبينما هو سائر إذ لاحت له طريدة ، فأطلق عنان جواده وكان على سابق من الخيل ، فأشرف على نهر ماء الفرات ، فإذا هو بجارية عربية خماسية القد ، قاعدة النهد كأنها القمر ليلة تمامه ، وبيدها قربة قد ملأتها ماء ، وحملتها على كتفها ، وصعدت من حافة النهر ، فانحل وكاؤها ، فصاحت برفيع صوتها :
ياأبت أدرك فاها ، قد غلبني فوها ، لاطاقة لي بفيها .

قال : فعجب المأمون من فصاحتها ، ورمت الجارية القربة من يدها .
فقال لها المأمون : ياجارية من أي العرب أنت ؟
قالت : أنا من بني كلاب

قال : وما الذي حملك أن تكوني من الكلاب
قالت : والله لست من الكلاب ، وإنما أنا من قوم كرام ، غير لئام ، يقرون الضيف ، ويضربون السيف .
ثم قالت : يافتى من أي الناس أنت
فقال : أو عندك علم بالأنساب ؟
قالت : نعـم
قال لها : أنا من مضـر الحمراء
قالت : مـــن أي مضـــر
قال : مـن أكرمها نسبا ، وأعظمها حسبا ، وخيرها أما وأبا ، ممن تهابه مضر كلها .
قالت : أظنك من كنانــة
قال : أنا مـــن كنانـة
قالت : فمن أي كنانـــة
قال : أكرمها مولدا ، و أشرفها محتدا ، وأطولها في المكرمات يدا ، ممن تهابه كنانة وتخافه .
فقالت : إذن أنت من قريش
قال : أنا مـــن قريـــش
قالت : مـن أي قريش
قال : من أجملها ذكرا وأعظمها فخرا ، ممن تهابه قريش كلها وتخشاه .
قالت : أنت والله من بني هاشـــم
قال : أنا مـــن بني هاشـــــم
قالـت : مـــن أي هاشـــم
قال : مـن أعلاها منزلة ، وأشرفها قبيلة ، ممن تهابه هاشم وتخافه .
قال : فعند ذلك قبّلت الأرض
وقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، وخليفة رب العالمين .

قال : فعجب المأمون وطرب طربا عظيما
وقال : والله لأتزوجن بهذه الجارية ، لأنها من أكبر الغنائم .
ووقف حتى تلاقته العساكر ، فنزل هناك وأنفذ خلف أبيها وخطبها منه فزوجه بها ،وأخذها وعاد مسرورا ، وهي والدة ولده العباس .

بعد أن أنهى الحكاية ، تحدث عن تاريخ جد سنانيك وموالاته لهذه الأسرة ، هذه الموالاة التي تدرجت إلى أن بلغته ، وهو الذي يحمل في عروقه دماء ذاك الرجل الأشم ، ثم أردف الملك : أنت يا سنانيك أفندي أصبحت من أهل القصر ، ومن المقربين إلى أسرتنا عبر كل هذه السنوات ، لهذا يا سنانيك أفندي لا أستطيع أن أفرض عليك أمرا ، فأنا أطلب منك طلبا لا أريدك أن تجيبني عليه الآن ، إنني أطلب ابنتك فلك زوجا لي .

قال سنانيك وهو لا يكاد يصدق ما يقع على سمعه : أنت تأمرنا يا مولاي ، أنا وكل أفراد أسرتي رهن إشارتك ، ما تقوله هو أمر منفذ بالنسبة إلينا ، وأي محظوظ أكون حتى أناسب شخصا في مقامكم يا مولاي .
فأردف الملك : هذا ليس كافيا يا سنانيك أفندي ، أريدك أن تذهب إلى البيت ، وتأخذ قسطا من الراحة ، وفي صباح يوم الغد تتحدث مع ابنتك في الأمر ، ثم تأخذ رأي أسرتك وتعود إليّ مساء يوم الجمعة القادم في نفس هذا الوقت ، ستراني بانتظار ك وأكون مهيئا لسماع ما تأتي به بعد المشاورة .
لم يكن سنانيك ذاته الذي دخل إلى الديوان منذ ساعة ، كان شخصا مختلفا عنه حتى أن الحراس لمحوا هذا الإشراق الذي علا وجهه ، لمحوا هذه الثقة والمعنويات العالية التي يخرج بها من بين يدَي جلالة الملك .

مظهره وهو يمشي يوحي لهم بأنه من أبناء الأسرة المالكة وليس خياطا لدى أميراتها ، وهو الذي دخل شاحبا منكسرا كمهزوم ، يلقي السلام على جميع الحراس مترقبا أن يخبره أحدهم بعقاب ينتظره في الداخل ، بل كانت تراوده شكوك بأنه قد لا يعود إلى بيته ثانية .
ها هو يدب بخطواته على بلاط القصر بمعنويات قائد منتصر ، يرفع رأسه ويمضي بثقة وسط حارسَيه الشخصييَن سالكا طريق البيت .
لم يكن ينتظر أن تقع عيناه على أحد في البيت قبل فلك ، وهنا تمتم في سره : " ستي فلك " لأنها سوف تصبح ملكة على سائر هذه المملكة ، إنها المرأة التي سوف تحدث تحولا هائلا في تاريخ أسرتها .
بدخوله البيت انطلق منه هتاف : فلك .. فلك ابنتي ، فلك .. أين أنت يا فلكتي ؟
استولت دهشة على كل مَن في البيت ، فهو قد خرج بحال وعاد بحال معاكسة ، إنه يكاد يغني ووجهه يشرق ، خطواته تدب على الأرض بثقة .
قالت فلك : وهي تنظر إلى عينيه : لبيك أبي ، هاأنذا بين يديك .
تذكر كلام الملك بأن عليه أن يستريح الليلة وفي صباح الغد يفاتحها بالأمر .
أخذها في حضنه وغدا يغرق وجهها بالقبلات ، وطلب أن يحتفلوا الليلة ويصنعوا طعاما لذيذا احتفالا بحالة الفرح التي دخلها .
بعد انتهاء مسامرة العائلة إلى نحو منتصف الليل ، دخل سنانيك في فراشه بانتظار ولوج الصباح .
ولكن أي نوم ، وأي راحة وسط هذا الحبور الذي يلفه ، صحيح أنه استلقى في فراشه ، بيد أنه انتقل إلى عالم من خيال .
إن جلالة الملكة هي ابنته وهو لم يعد يقل شأنا عن الملك نفسه ، فأحفاده سوف يصبحون ملوكا .

في الصباح نهض من فراشه واتجه صوب الحديقة طالبا فنجانا من القهوة ، بعد قليل جاءت زوجته وشاركته الجلوس .
استمر ذلك إلى أن نهضت فلك من تلقاء نفسها وجاءت تشاركهما الجلوس وشرب القهوة ، عندئذ وبدون تردد تحدث لهما عن سبب كآبته وقلقه في الأسبوع الماضي ، وكذلك عن السبب الحقيقي لاحتفال البارحة ، إنه الملك الذي بدّد هذه الكآبة وهذا الخوف عندما أخبره عن السبب الحقيقي لطلب مثوله بين يديه .
هنا لم تملك الأم إلا أن تعبر عن ارتياحها وسعادتها لمطلب الملك بالمصاهرة ثم قالت بفخر لزوجها : لا شك أن سلوكك في القصر كان الدافع الأقوى خلف قرار كهذا من جانبه .
قال : لكن الملك طلب مني أن أطرح الموضوع على فلك وألا أرغم عليها شيئا لا تبغاه .
فقالت فلك بأنها تريد أن تختلي بنفسها ليومين ثم تخبرهما بما ترى .
لبثت فلك في حالة شرود وتأمل إلى أن مضى اليومان ، دون أن تتحدث بشيء ، وفي صبيحة اليوم التالي دخلت أمها إلى حجرة نومها بشيء من قلق ، فيما لبث أبوها ينتظر ما تخرج به .
قالت لها : كنا ننتظر جوابك حتى أمسية البارحة
قالت : لقد رأيت ما رأيت يا أمي
قالت وكأنها تريد أن تجر الحديث من فمها جرا : هيه يابنيتي أخبريني **؟!**
هزت الأم رأسها وعادت إلى زوجها المنتظر على جناح القلق لتخبره بما رأت فلك من شأنها .
وقع سنانيك في حيرة من أمره وهو يصغي لزوجته ، فكيف يطلب من الملك أن يأتي إليه في بيته حتى تطلب منه فلك مطلبا ، الملك يوتى ، ولا يأتي ، إنه الآمر الناهي في هذه المملكة ، يأمر بما يشاء وليس على الناس غير تلقي هذه الأوامر وتنفيذها .

مضى الأسبوع ثقيلا وسنانيك واقع في حيرة من أمره ، إنه ينفذ أمر مولاه الذي أمره أن يرى رأي ابنته قبل أي خطوة .

دخل سنانيك الديوان بخطوات باردة بعض الشيء ، لكن الملك بدد ذاك التردد عندما استقبله بالترحاب قائلا : مرحبا بك ياسنانيك أفندي .
ثم أجلسه في ذات الموضع جوار مجلسه .
قال سنانيك : والله ياجلالة الملك لاأعرف ما أقول لجلالتكم ؟!
نظر إليه الملك وقال بنبرات هادئة ومطمئنة : قل ما تشاء ياسنانيك
قال : أنت الذي تقول ، وأنت الذي تطلب ، وأنت الذي تأمر يامولاي .. والله أنا في حيرة من أمري ، لاأوقعك الله في حيرة ياتاج رأسي .
أحس الملك بأنه يخفي كلاما لايعجبه ، فقال على الفور : هل رفضت ابنتكم مطلبي ياسنانيك أفندي ، لستُ أنا من يفرض أمرا كهذا على شخص يحمل تاريخا مشرفا نحو أسرتي .. لاتخف ، قل بشجاعة ما سمعته من ابنتك ، لن يتغير أي شيء .
قال سنانيك : الأمر ليس على هذا النحو ياجلالة الملك ، رأت ابنتي أن تشرّف بيتنا بزيارة كريمة ، قالت لأمها بأنها سوف تطلب مطلبا منك بصفة شخصية .
قال الملك : قل ، لاتخجل ياسنانيك أفندي ، ما الذي تريده ابنتك إن كانت موافقة على هذا الزواج .
قال : لم تقل بأنها موافقة ، أو غير موافقة ، ولم تخبر أمها بالطلب الذي رأت أن تطلبه من جلالتك شخصيا .
هذا ما حدث خلال هذا الأسبوع الذي أمهلتني فيه يا مولاي . أنا أنقل لك ما حدث معي بناء على أمرك الذي أمرتني به في الأسبوع الماضي يا ولي نعمتي .
انتابت الملك ذات القشعريرة التي انتابته لحظة وقوع نظره عليها ، وللحظة راوده ذات الإحساس الذي لايعجبه أن يلبث فيه ، لكنه بالمقابل أحس بنشوة وهو يتخيل بأنه سوف يرى فلك ، سيوف ينظر إلى كل

ملامح الجمال تلك ، وعندما لمح بأن سنانيك أفندي ينظر إلى إرباكه قال:
غدا سوف أذهب إلى الصيد ، ولن أعود قبل الغروب ، سوف أرتاح في البيت ، وبعد غد سوف أكون في منزلك في منتصف الليل ، لن يعلم أحد بالأمر ، سوف آتي بمفردي ، لاتخبر أحدا بهذه الزيارة غير أفراد أسرتك .
خرج سنانيك من بين يدَ ي مليكه وكأنه تلقى أمرا بتعيينه وزيرا ، غدا يتقافز وهو يمضي نحو البيت مع حارسَية ، وهناك لم يتردد من أن يهدي إليهما عجلين قائلا بأنهما سوف يعرفان المناسبة فيما بعد .
بدت أسرة سنانيك مستعدة للقاء كبير كهذا ، فهي المرة الأولى التي يدخل فيها الملك هذا البيت ، وبدأت الاستعدادات لاستقبال هذا الضيف ، ألوان الطعام والشراب ، والسجاد العجمي الذي يمشي عليه ، والكرسي الذي يجلس عليه ، والأواني التي يأكل ويشرب فيها ، بل أنه حتى هيأ بيت الخلاء لعل جلالته يحتاج إليه خلال هذه الزيارة .

وكان الموعد الذي لم يصدقه سنانيك ، إنه الملك بشخصه يتقدم نحو الباب ، وهو يقف مع أفراد أسرته في مدخل البيت لاستقباله ، يمضي دون أن يرافقه أحد .
استقبلوه بحفاوة وفق البرنامج المخطط له من قبل أهل البيت ، لكنه لم يكن ينظر إلا إلى فلك التي بدت أمامه امرأة سحرية وتزيده شعورا بأنه حارس يقف في حضرة مليكته .
استغرق جلوسه ثلاث ساعات متواصلة تعشى خلالها وتناول ألوان الشراب ، ثم تركوا فلك لتقول له ما ترغب في قوله .
لبث معها في خلوة وكانت فرصته ليتأملها بحرية دون أن ينظر إليه أحد .
قالت له فلك : يامولاي ، اعلم أنه يشرفني مطلبك بالزواج مني ،

ثم صمتت وهو يتأملها ، ويتذوق حديثها حرفا حرفا وكأنها تشدو بأحب أغنية على قلبه ، أردفت وهي تتحاشى أن تنظر إليه مبدية خجلها الشديد وهي في حضرته :
ويشرفني أن أخبرك موافقتي على هذا الطلب الذي أعتز به ،

افتر ثغر الملك عن بسمة ، ثم بعد لحظات صمت أخر استأنفت :
لكن يامولاي وولي نعمتي ،
وصمتت مرة أخرى ، ثم استجمعت قواها وهي تسعى إلى إبعاد الاضطراب عن نبرات صوتها لتقول دون تقطع :
أمام هذا الطلب تذكرت أنني يوما خرجت مع أمي وأبي في مرافقة عائلية ضمن إحدى زياراتك العائلية التي اصطحبتك فيها جلالة الملكة الكبيرة إلى مملكة / علم الدين / التي تربطكم بها علاقات وثيقة .
بلعت ريقها وهي تستمر بذات النفس دون انقطاع :
في اليوم الثاني للزيارة قامت ملكة تلك المملكة بأخذنا إلى أماكن خلابة في أرجاء مملكتها ، وكان من ضمن ما لفت نظري وبقي في ذاكرتي حتى هذه اللحظة ، وجود جامع بالغ الأناقة والحسن .
تمنيت في تلك اللحظة وكأنني في عالم سحري بأن يحمل هذا الجامع اسمي .
ولأول مرة رفعت عينيها لتنظر إليه ، فسر ذلك الملك وهو يبتسم ويبدي استعداده للإصغاء :
الآن ياجلالة الملك ألح ذاك الحلم على نفسي وأنت تتقدم إلي .
لاأستطيع أن أقول لجلالتك بأن تحضر ذاك الجامع إلى هذه المملكة وتطلق اسمي عليه لأن ذلك من صنع الخيال ، ولكن إذا أذنت لي ياجلالة الملك فإن مطلبي الذي طلبت لقاءك من أجله هو أن يحضر ذات الرجل الذي صمم ذاك البناء وأشاده كي يصمم جامعا مماثلا له وسط هذه المملكة ، وتطلق عليه جامع / ستي فلك / هذا إن كان المصمم حيا ، وإن

لم يكن ، تستعين بالشخص الذي ورثه في هذه الحرفة ، لأنني عندما أتزوجك سوف أكون ملكة وفق التقاليد الملكية .
هز الملك رأسه وهو يزداد تمسكا وإصرارا على أن تكون فلك حليلة له ، فهي تملك أصالة وعراقة ، وهذا الذي جعلها تطلب أن يأتي خاطبا إياها ، لا أن تذهب إليه في قصره ليخطبها، ثم رأت أن يكون مهرها شيئا ثمينا كهذا ، وهو مطلب لايخرج إلا من ذوي نفوس نبيلة .
هز الملك رأسه بالموافقة وقال : لك ما تشائين ياستي فلك .
قالها بحسم ونهض عائدا إلى بيته مع بزوغ الضوء .
هنا وأثناء الاستعدادات أرسل الملك إلى ملك مملكة / علم الدين/ يطلب منه إرسال المصمم الذي قام بتصميم وبناء ذاك الجامع فورا ليقوم بتصميم مماثل له في مملكته ، فحضر ذاك المصمم وفي منتصف الليلة التالية أخذه الملك إلى بيت سنانيك وقدمه لخطيبته قائلا بأن هذا هو الشخص الذي قام ببناء ذاك المسجد ، وانه لحسن حظها مازال حيا يرزق .
وكلفه الملك بأن يشيد جامعا مماثلا له وسط هذه المملكة ويحمل اسم / ستي فلك / فقال المصمم بحضور فلك بأنه سوف يباشر بالأعمال الأولية وسوف يعود إلى هذه المملكة بعد نحو شهر ليباشر عمله .
هذا الكلام كان كفيلا بأن يجعل فلك تشعر بطمأنينة كاملة وكأن الجامع قد شيّد بالفعل .
وبناء على ذلك تم تحديد يوم الزفاف بعد أسبوعين حتى تتم التجهيزات اللازمة لحفل ضخم كهذا .
عندئذ لم تتردد الأم من تقديم وصايا الزواج لابنتها كونها صبية تتفتح على الحياة للتو ، وهي لاتعلم شيئا عن العشرة الزوجية . فقالت لها مستعينة بما كان قد علق في ذاكرتها من وصايا أمهات لبنا تهن ليلة الزفاف :

أي بنيـة إن الوصـية لـو تركـت لفضـل أدب تركـت لـذلك منـك ، ولكنهـا تذكرة للغافل ومعونـة للعاقل ، ولـو أن امرأة استغنت عن الـزوج لغنـى أبويها وشدة حاجتهما أليها كنتِ أغنى النـاس عنـه ، ولكن النسـاء للرجـال خلقن ، ولهن خلق الرجال .
ثم تضيف بكل حرص : أي بنية ، إنك فارقت الجو الذي منه خرجت ، وخلفت العش الـذي فيـه درجـت إلـى رجـل لـم تعرفيـه وقـرين لـن تألفيـه فأصبح بملكه عليك رقيبا ومليكا ، فكوني له أمة يكن لك عبدا .
أي بنية احملي عني عشر خصال تكن لك ذخرا وذكرا :

١ - الصحبة بالقناعة .
٢ - المعاشرة بحسن السمع والطاعة .
٣ - التعهد لموقع عينيه فلا تقع عينه منك على قبيح .
٤ - التفقد لموضع أنفه ، فلا يشم منك إلا أطيب ريح ، والكحل أحسن الحسن ، والماء
أطيب الطيب المفقود .
٥ - التعهد لوقت طعامه فإن حرارة الجوع ملهبة ، والهدوء عند منامه ، فإن تنغيص
النوم مغضبة .
٦ - الاحتفاظ ببيتـه ومالـه والإرعـاء علـى نفسـه وحشـمه وعيالـه ، فـإن الاحتفاظ بالمال ،
حسن التقدير والإرعاء على العيل والحشم الجميل ، حسن التدبير .
٧ - لاتفشي له سرا فإنك إن أفشيت سره لم تأمني غدره .
٨ - لاتعصي له أمرا فإنك إن عصيت أمره أوغرت صدره .
٩ - ثم اتقي الفرح إن كان ترحـا ، والاكتئـاب عنده إن كـان فرحـا ، فـإن الخصلة الأولى
من التقصير ، والثانية من التكبير .

١٠ - كوني أشد ما تكونين له مرافقة ، يكن أطول ما تكونينه له موافقة ، واعلمي إنك ما
تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك وهواه على هوا ك فيما
أحببت وكرهت ، والله يخير لك .

ولم يتردد سنانيك ليلة الزفاف من أن يقدم لها شيئا من الشعر على شكل وصايا مستعينا ببعض ما حفظ من وصايا الآباء لبناتهن ليلة الزفاف قائلا :

يابنية، عليك بأطيب الطيب وهو الماء ،
وأحسن الحسن وهو الكحل ،
وإياك وكثرة المعاتبة فإنها قطيعة للود ،
وإياك والغيرة فإنها مفتاح الطلاق ،
وكوني لزوجك أمة يكن لك عبدا ،
واعلمي أن لسان حال الزوج يقول لزوجته عند الزواج :

خذي العفو مني تستديمي مودتي
ولاتنطقي في ثورتي حين أغضب
ولا تنقريني نقرة الدف مرة
فإنك لاتدرين كيف المغيـــب
فإني وجدت الحب في الصدر والأذى
إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

فكان يوم العرس المشهود الذي احتفلت به المملكة برمتها وحضره بعض ملوك وأمراء ورؤساء ممالك وإمارات ودول مجاورة .
لقد أصبحت فلك / ستي فلك / وهي السيدة الأولى الصغيرة في هذه المملكة ، وأفرد لها الملك جناحا خاصا في مملكته إلى جوار زوجتيه السابقتين ، وهي الزوجة الأثيرة لديه يستشيرها في أمور الملك رغم صغر سنها لأنه بات يؤمن بحكمتها بناء على مواقفها السابقة .
ومن الطرف الآخر مضى الشهر دون أن يحضر المصمم الذي سوف يباشر في تشييد الجامع ، فرأت أن تنتظر لعله لم ينجز الأعمال الأولية للمباشرة في البناء ، فقد قال بأنه سوف يحتاج إلى نحو مئة شخص كل واحد يقيم في مكان ، فلا بد أن تكون القباب الملونة مثل تلك القباب ، وكذلك المآذن ، والرخام ، والأحجار الكريمة ، وأنواع الخطوط الداخلية والخارجية ، والسجاد ، والأثاث .
كل ذلك يحتاج إلى أشخاص من ذوي مهارة مشهودة ، فاستغرق ذلك شهرين دون أن يحضر ، وهنا تحدث الملك نفسه عن هذا التأخر فأرسل إليه بهذا الشأن ، لكن الوفد عاد بخفَي حُنين قائلا بأن الرجل يعتذر عن تصميم هذا الجامع .
كان ذلك بمثابة وقع الصاعقة على سمع فلك وجعلها في حالة من الاستياء لأن حلمها الوحيد لن يتحقق وأن ذاك الرجل قد خدعها كما أنه خدع جلالة الملك .
لكن الملك لم يسكت على ذلك فأرسل إليه مرة أخرى ، بيد أن الرجل لبث في موقفه قائلا بأنه لن يقوم بمثل هذا العمل وأنه سحب كلامه السابق الذي قاله شفويا ولا توجد بينه وبين المملكة أية عقود تلزمه بهذا التنفيذ .
أمام هذا الكلام أحس الملك بحرج من أن يشكوه إلى ملكه ، فذلك لايليق بمقامه تاركا الأمر على ما هو عليه .

هنا راودت ستي فلك فكرة وهي أن تعلم السبب الحقيقي لرفضه بناء هذا الجامع لأنه أمر لا يخص الملك ولا يخص المملكة ، بل إنه يخصها شخصيا ، فهو مهرها الوحيد ، وشرطها الوحيد ، ومطلبها الوحيد حتى تم هذا الزواج .
وقد وعدها المصمم بحضور الملك وحضور أ فراد أسرتها على التنفيذ ، فماذا حدث لكي يغير رأيه ؟!
غدا الأمر لديها قضية ، وكأنها قضيتها الوحيدة التي عليها أن تكافح من أجلها ، وهنا لم تتردد من إرسال من تثق به في القصر ليذهب إلى ذاك المصمم ويطلب إليه الحضور للقاء جلالة الملكة .
وكان لها ذلك حيث حضر المصمم خلسة دون أن يعلم الملك بحضوره ، عندئذ شرحت له الملكة قصتها وقالت : لايحق لك رفض ذلك يامعلم ريان ، أنت وعدتنا بالبناء ، ووعدك هذا ترتبت عليه أمور مصيرية لاتعرفها ، ولايعنيك أن تعرفها .
ثم قالت بأنها مستعدة لتقنع الملك حتى يضاعف له الأجر ، وأنها سوف تتولى متابعة أعماله شخصيا وتضع قصر الضيافة الملكية في تصرفه وتصرف عماله ، وتوفر له كل احتياجاته من أجل إنجاز هذا الجامع الذي تعتبره حلم عمرها الوحيد .
وهنا قال المصمم بأنه يريد أن يصارحها بأمر ، هذا الأمر الذي جعله مترددا من بناء هذا المسجد .
أبدت استعدادها لسماع مايود قوله ، فقال أنه بالفعل كان موافقا لهذا البناء لأن هذا هو عمله وهو رجل باحث عن عمل حتى يعيش ، ولكن في أثناء رؤيته لها وحديثه معها في بيتها بحضور جلالة الملك : لا أعرف ياسيدتي كيف ولدت لديّ رغبة في أن ..
و صمت ريان موجها نظره إلى الأرض .
قالت الملكة : اكمل ، أسمعك يا معلم ريان ، ماذا تريد أن تضيف ؟
بدا أمام ناظريها بأنه يستجمع شجاعته ، وبعد نحو خمس دقائق من الصمت رفع بصره ينظر إليها هذه المرة ، لكن بنظرات مليئة بالحياء ،

وهو يتوقع بأن هذه العبارة ستضع نهاية لحياته وقال : راودتني رغبة في أن أقبلك .
انتفضت الملكة وكأن صاعقة أصابتها ، ثم جحظت عينيها وهي تنظر إليه بحالة غضب موجهة إليه كلمات شرارية : لو لم تكن ضيفي لما نلت سكوتي جراء تماديك هذا .
قالت هذا الكلام وانصرفت ليعود المصمم مطرودا إلى مملكته في ذات اللحظة وكأنه لم يكن ضيف الملكة .
أمام ذلك لم يبق أمام الملكة إلا أن تملأ أوقات فراغها بالتسلية وسماع الحكايا من خادمات القصر ، وتفكر بالإنجاب لعل الطفل يأخذ تفكيرها فتنسى قصة الجامع .
وكانت ثمة امرأة عجوز تدعى / تسنيم / وهي امرأة لبثت عازبة دون أن يكون لها حظ في الزواج ، تقيم في هذا القصر وتروي القصص والحكايا لأهل القصر ، حتى أن الملك نفسه عندما يشعر بضجر ، ويذهب عنه النوم وهو في السرير مع الملكة ، فإنه يطلبها كي تروي له حكاية يغفو مع تشابك أحداثها وينام ، فتطلب إليها الملكة أن تطفئ الأضواء وتنصرف بتؤدة .
رأت فلك أن تستعين بعض أوقات فراغها بهذه العجوز فطلبتها ساعة الظهيرة لتروي لها حكاية مسلية بعض الشيء .
حضرت العجوز وأبدت سعاتها لهذا المطلب من جلالة الملكة ثم طفقت تروي على أسماعها والملكة مسترخية في قيلولة الظهيرة ساعية ما استطاعت نسيان أمر الجامع :
يحكى أن هندا ابنة النعمان كانت أحسن أهل زمانها ، فوُصف للحجاج حسنها ، فأنفذ إليها بخطبها ، وبذل لها مالا جزيلا إلى أن تزوج بها ، و شرط لها عليه بعد الصداق مائتي ألف درهم ، و دخل بها ثم إنها انحدرت معه إلى بلد أبيها المعرة ، و كانت هند فصيحة أديبة ، فأقام بها الحجاج بالمعرة مدة طويلة ،ثم إن الحجاج رحل بها إلى العراق ،

فأقامت معه ما شاء الله ، ثم دخل عليها في بعض الأيام و هي تنظر في المرآة و تقول :

وماهند إلا مهرة عربية

سليـلة أفراس تحللها بغل

فإن ولدت فحلا فلله درها

وإن ولدت بغلا فجاء به البغل

فانصرف الحجاج راجعا و لم يدخل عليها ، دون أن تعلم به . وأراد طلاقها فأنفذ إليها عبد الله بن طاهر ، وأنفذ لها مائتي ألف درهم وهي التي كانت لها عليه ، وقال : يا بن طاهر طلقها بكلمتين و لا تزد عليهما .

دخل عبد الله بن طاهر عليها ، فقال لها : يقول لك أبو محمد الحجاج : كنتِ فبنتِ ، وهذه المائتا ألف درهم التي كانت لك قبله ، فقالت : اعلم يا ابن طاهر ، إنا والله كنا فما حمدنا ، و بتنا فما ندمنا ، و هذه المائتا درهم التي جئت بها ، بشارة لك بخلاصي من كلب بني ثقيف .

ثم بعد ذلك بُلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان خبرها ووُصف له جمالها ، فأرسل إليها يخطبها ، فأرسلت إليه كتابا تقول فيه بعد الثناء عليه : اعلم يا أمير المؤمنين إن الإناء ولغ فيها الكلب .

فلما قرأ عبد الملك الكتاب ضحك من قولها وكتب إليها يقول : إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعا ، إحداهن بالتراب ، فاغسلي الإناء يحل الاستعمال .

فلما قرأت كتاب أمير المؤمنين لم يمكنها المخالفة ، فكتبت إليه بعد الثناء عليه : يا أمير المؤمنين والله لاأحل العقد إلا بشرط ، فإن قلت ما هو الشرط قلت أن يقود الحجاج محملي من المعرة إلى بلدك التي أنت فيها ، ويكون ماشيا حافيا بحليته التي كان فيها أولا .

فلما قرأ عبد الملك ذلك الكتاب ضحك ضحكا شديدا ، وأنفذ إلى الحجاج وأمره بذلك ، فلما قرأ الحجاج رسالة أمير المؤمنين أجاب وامتثل الأمر

ولم يخالف ، وأنفذ إلى هند يأمرها بالتجهز ، فتجهزت وسار الحجاج في موكبه حتى وصل المعرة بلد هند ، فركبت في محمل الزفاف ، وركب حولها جواريها وخدمها ، وأخذ الحجاج بزمام البعير يقوده ويشير بها ، فجعلت هند تتواغد عليه ، وتضحك مع الهيفاء دايتها ، ثم إنها قالت للهيفاء : يادايـة اكشفي لي سجف المحمل ، فكشفته ، فوقع وجهها في وجه الحجاج فضحكت عليه ، فأنشأ يقول :

فإن تضحكي مني فيا طول ليلة
تركتك فيها كالقباء المفرج

أجابته هند تقول :

وما نبالي إذا أرواحنا سلمت
بما فقدناه من مال ومن نشب
فالمال مكتسب والعز مرتجع
إذا النفوس وقاها الله من عطب

لم تزل كذلك تضحك وتلعب إلى أن قربت من بلد الخليفة ، فرمت بدينار على الأرض ، ونادت : ياجمال إنه قد سقط منا درهم فارفعه إلينا ، فنظر الحجاج إلى الأرض فلم يجد إلا دينارا فقال : إنما هو دينار ، فقالت : بل هو درهم ، قال : بل دينار .
فقالت : الحمد لله ، سقط منا درهم فعوضنا الله دينارا ، فخجل الحجاج وسكت ، ولم يرد جوابا ، ثم دخل بها على عبد الملك بن مروان فتزوج بها .

مضت الشهور ولكن الملكة لم يكن باستطاعتها أن تنسى هذا الحلم ، فهي دوما تشعر بنقص حتى أن زوجها عرض عليها أن يحضر مصمم

آخر لإشادة هذا الجامع ، بيد أنها لم تكن مرتاحة لهذا الأمر ، سوف يبقى بناء الجامع المماثل حسرة في قلبها ، وهنا لا تدري كيف رغبت في أن تعرف أشياء عن أسرار القبلة ، أرادت أن تدخل إلى عالم القبلة ، فما الذي دفع هذا الرجل بأن يطلب منها هذا الطلب الغريب !
إنها قبلة واحدة وسوف يتنازل عن كل حقوقه الطائلة ، قبلة واحدة لقاء سنتين من عمل متواصل .
تذكرت قبلة العيد التي تطبعها على كف والدها ،
على كف أمها .
تذكرت القبلات التي تتبادلها مع إخوانها الثلاثة ،
مع صديقاتها .
استردت ذاكرتها القبلة التي تضعها على القرآن الكريم بعد أن تفرغ من قراءته .
القبلة التي تتلقاها بها صديقتها الحميمة كروان كلما زارتها .
ثم تذكرت لحظات تلقي قبلات الملك على وجهها وهما في السرير الزوجي .

كل شخص يحمل معه عالمه الخاص تجاه الآخرين ، ومن ثنايا هذا العالم تصدر منه الأفعال ، ومن ثنايا هذا العالم يستقبل الآخرون هذه الأفعال .
لبثت في حالة تأمل بكل لون من ألوان القبلات ، كل قبلة تمتاز بخصوصيتها كما أن كل شخص يمتاز بخصوصية ،
خصوصية أن تلقاه بترحاب ،
خصوصية أن تلقاه بازدراء ،
خصوصية أن تلتقيه على عجل ،
خصوصية أن تتجنب لقاءه .

وهذه القبلة ضمن أي خانة سوف تندرج ، إنها لاتعرفه مسبقا ، وهو لايطلب شيئا غير قبلة واحدة ثم ينصرف دون أن تراه إلى الأبد .

مضت سنة على ذلك وبدأت الملكة تذبل وتشعر بخسارة الحلم الذي لن يتحقق ، ولكنها لا تدري أي قرار خطير اتخذته في لحظة ، لا تعرف ماذا تسميها ، أهي لحظة ضعف ، أم قوة ،
لحظة انتصار ،
أم لحظة استسلام .
كان القرار أن ترسل ذات الوفد إلى المصمم وتطلب إليه أن يأتي للقاء الملكة مرة أخرى ، فكان لها ذلك وحضر المصمم .
عادت الملكة وعرضت عليه بأنها سوف تعطيه ما يشاء من أملاك لقاء عمله ، قالت وهي تنظر إليه بشيء من الحقد ربما ذاقته وعرفته لأول مرة : سوف أجزي لك العطاء يامعلم ريان ، أعطيك ضعف ماتريد إضافة إلى الهدايا الشخصية التي أقدمها لك .
أخرج الشيطان من رأسك ولاتكن عنيدا ، ماتريده مني قد يكلفني حياتي ، وأيضا حياتك حتى قبل أن تظفر بما تريد .
بيد أنه لبث على مطلبه السابق بأنه لا يطلب شيئا سوى قبلة واحدة على خدها بعد أن يفرغ من العمل بشكل نهائي ويقدم لها الجامع لقاء هذه القبلة فقط .
ما يبتغيه هو أن يحصل على هذه القبلة فور انتهاء بناء الجامع ، وأي حديث آخر يجعله يعود إلى بيته .
فعادت الملكة ورفضت ذلك مديرة ظهرها للخروج ، وأمام الباب تمهلت بها قدماها ، ثم عادت تستدير إليه قائلة بأنها موافقة على مطلبه .. قالتها بمرارة ،
أو بهزيمة ،
أو باستسلام ،
أو بضعف ،
أو بقوة .. لا تدري ،
أو لم يكن يهمها إن تدري أو لا تدري ثم خرجت .

بعد عشرة أيام عاد المصمم ومعه ورشة كاملة ، وبدءوا على الفور في معاينة موقع الجامع ، ودون أي انتظار كانت المباشرة في وضع حجر الأساس .
كان المعلم ريان يعمل بفرح وحيوية منذ ساعة الصباح ، وحتى هبوط الليل ، وعندها يذهب على غرفته في قصر الضيافة الذي تم وضعه بما فيه من خدم تحت تصرفه الشخصي ومَن اصطحب من عمال .
يجلس على أريكة ملكية محاولا أن يعيش حالة تلقي القبلة من خد الملكة ، هذه القبلة التي يعتبرها اللقاء الأكبر لكل عمله خلال ثلاثين سنة متواصلة من العمل في التصميم والعمارة ، حتى لو أعطى كل ثروته التي جمعها لهؤلاء العمال ، فإنه يبقى يشعر بلذة الكسب الكبير .
هاهو صبيحة تسليم الجامع يستحم جيدا ، يرتدي أأنق ما لديه من ثياب ، يتعطر بأنفس ألوان العطور ، وهاهي تنتظره في ركن مخصص لهذا الحدث التاريخي وسط أضواء مخملية خافتة مزركشة .
ينظر إلى جمالية الخد الذي طالما حلم به منذ اللحظات الأولى التي وقعت فيها عيناه على صفحته المضيئة ،
أو عندما وقع قلبه عليه .
لن يكون بوسعه أن يصدق أي محظوظ سيكون وهو يلامس ذرات الخد بشفتيه ، لكنها الحقيقة الحتمية ، فهاهو فمه يدنو من ذرات البشرة المشرقة ، هاهي الشفتان تلامسان محيط الخد ، تستيقظان لأول مرة على قبلة حقيقية ، وتمدان الجسد والروح بإكسير الجمال .
تمضي دقائق أخرى وروحه ماتزال تستنشق الإكسير من حديقة البهاء ، ثم في لحظة يشعر بالامتلاء والاكتفاء ، يضع خده الأيسر موضع بصمة القبلة ، يلبث دقائق أخرى يشعر فيها بأنه يستمد إكسير الشفاء من أي داء ، يدير ظهره إليها ويخرج عائدا إلى مملكته دون أن ينتظر لحظة واحدة .
لقد أخذ منها كل ماكان يرتئيه ، ولم تعد تعنيه بشيء .

مضت سنة على مباشرة العمل في هذا الجامع ، بين حين وحين تخرج الملكة لتراقب مراحل العمل وتستمتع بلذة النظر إلى هذه الذكرى الخالدة التي سوف تتركها في الحياة ، وأحيانا ترى بأنها حتى لو دفعت حياتها ثمنا ، فإنها تبقى تشعر بلذة الكسب والظفر لأنها أنجزت عملا خالدا كهذا ، إنه جامع / ستي فلك / الذي يلبث يحمل اسمها ما لبثت المملكة .
خلال هذه السنة من العمل أنجبت فلك طفلا شاء الملك أن يسميه / فجر / . كانت فرحة الملكة لا توصف وهي ترى ابنها وتنظر أنه الفجر الجديد الذي سطع على حياتها وبدد كل الظلمات ، وكذلك هاهو حلم بناء الجامع يتقدم نحو التحقيق ، فأي شيء تريد بعد ذلك ، لقد حقق الله لها كل أمنياتها ، لكن بذات الوقت تشعر بأنها سوف تذنب ذنبا بحق زوجها الذي تحبه ، بل إنها خيانة لهذا الرجل ، فكيف ستدع رجلا غريبا يطأ خدها بقبلة ، إنها تعيش حالة دائمة من الإرباك إلى جانب فرحها بمولودها الجديد وإحساسها لأول مرة بمشاعر الأمومة تجاه هذا الطفل .
ومضت السنة الثانية مسرعة بين فرح ، واضطراب ، وألم ، وهي تنظر إلى هيكل الجامع يأخذ شكله النهائي .
إنه الموعد الذي لم تكن تصدق بأنه سوف يحل ،
الموعد الذي لبث خلال سنتين يطاردها كاللعنة .
موعد الوفاء بالوعد الذي قطعته للمصمم ،
كان ذلك في الصباح ، وكان الملك خارجا كعادته للصيد .
دعت الملكة المصمم ، وتركت الحراس في الخارج .
كانت في حال يرثي لها من الاضطراب بيد أنها كانت تزداد جمالا في عيني الرجل وهو يستعد كل الاستعداد ليظفر بثمرة عمله خلال سنتين .
دنا منها بخطوات واثقة ولم تستطع أن تنظر إليه .
أغمضت عينيها ، ومنحته خدها الأيمن قائلة : هاأنذا مستعدة للوفاء بوعدي .

طلب الرجل أن تكون القبلة على الخد الأيسر ، فاستدارت مانحة له صفحة الخد وهي تتعصر ألما ، فلبث الرجل ينظر في الخد نحو خمس دقائق ويدنو بفمه بطيئا بطيئا إلى أن لامست شفتاه تقاطيع خدها .
كل الأحلام الماضية تحولت في لحظات إلى حقيقة ، وشتان بين الواقع والخيال ، إنها روح العذوبة الحقيقية التي يستنشقها من هذه البشرة السحرية ، والخد بالنسبة إليه هو رأس بلاغة الجمال ، إن روح الجمال لاتملك إلا أن تنبض في رحابة الخدين .
تمتمت روحه بهمس لسمعها : عشر دقائق ليست كثيرة على عمل شاق استغرق سنتين .
لبث خمس دقائق دون أن يرفع فمه ، بعد ذلك شعر بأنه أخذ ما يريد .
سحب فمه ببطء شديد ، ثم وضع خده الأيسر في ذات الموضع الذي طبع عليه القبلة من خدها ، ولبث نحو خمس دقائق أخرى لينسحب قائلا : لقد وصلني حقي يا جلالة الملكة .
قال ذلك وأدار ظهره خارجا دون أن يلتفت إليها .
جثت الملكة على ركبتيها وهي في حالة شبه تامة من الانهيار ، هل تستحق أن تبقى في هذا القصر بعدما فعلته بحق زوجها ، هل يستحق الجامع ثمنا للخيانة .
غدت في دوامة من الأفكار والوساوس بيد أن ماشطتها ولجت وهرعت إليها عندما رأتها في تلك الحال .
اصطحبتها إلى حجرتها وجعلتها تتمدد على السرير وطلبت لها إبريقا من البابونج لتهدئ من أعصابها قليلا .
وعلى الفور نادت الماشطة العجوز تسنيم من أجل أن تسليها ببعض حكاياها لعلها تخفف عنها قليلا .
دخلت العجوز ، جلست قبالة سيدتها ، عز عليها أن ترى مساحات الذبول تحتل خديها فقالت :
يُروى ياستي أن رجلا أراد أن يختبر ذكاء زوجته فقال لها وهي صاعدة السلم : أنت طالق إن صعدت ،

وطالق إن نزلت ،
وطالق إن وقفت .
نظرت إليها الملكة وهي تحاول أن تصطنع بسمة .
أضافت العجوز : شردت المرأة قليلا ثم رمت نفسها على الأرض .
دُهش زوجها وقال : فداك أبي وأمي ، إن مات الإمام مالك احتاج إليك أهل المدينة في أحكامهم .
ولم تخف الملكة رغبتها في أن تسمع حكاية جادة عن الورع .
صمتت العجوز قليلا وكأنها تريد أن تروي حكاية تنسجم مع وضع سيدتها النفسي وتخفف عنها قليلا .
قالت بعد عدة دقائق من صمت :

قال عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى : خرجت حاجا إلى بيت الله الحرام ، و زيارة قبر نبيه عليه الصلاة و السلام ، فبينما أنا في الطريق ، إذا أنا بسواد على الطريق ، فتميزت ذاك فإذا هي عجوز عليها درع من صوف ، و خمار من صوف ، فقلت : السلام عليك و رحمة الله وبركاته
فقالت : **(( سلام قولا من رب حكيم ))** .
قال فقلت لها : يرحمك الله ما تصنعين في هذا المكان ؟
قالت : **(( و من يضلل الله فلا هادي له )) .**
فعلمت أنها ضالة عن الطريق ، فقلت لها : أين تريدين ؟
قالت : **(( سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام ، إلى المسجد الأقصى )) .**
فعلمت أنها قد قضت حجها وهي تريد بيت المقدس ، فقلت لها : أنت منذ كم في هذا الموضع ؟
قالت : **(( ثلاث ليال سويا )) .**
فقلت : ما أرى معل طعاما تأكلين .
قالت : **(( هو يطعمني ويسقيني ))**

فقلت : فبأي شيء تتوضئين ؟
قالت : **(( فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا ))**
فقلت لها : إن معي طعاما فهل لك في الأكل ؟
قالت : **(( ثم أتم الصيام إلى الليل ))**
فقلت : ليس هذا شهر رمضان
قالت : **(( من تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم ))**
وقلت : قد أبيح لنا الإفطار في السفر
قالت : **(( وأن تصوموا خيرلكم إن كنتم تعلمون ))**
فقلت : لم لاتكلميني مثلما أكلمك
قالت **(( ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ))**
قلت : أي الناس أنت ؟
قالت : **(( ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا ))**
فقلت : قد أخطأت فاجعليني في حل
قالت : **(( لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ))**
فقلت : فهل لك أن أحملك على ناقتي هذه فتدركي القافلة
قالت : **(( وما تفعلوا من خير يعلمه الله ))**
قال : فأنخت ناقتي
قالت : **(( قل للمؤمنين أن يغضوا من أبصارهم ))**
فغضضت بصري عنها ، وقلت لها : اركبي ، فلما أرادت أن تركب ، نفرت الناقة فمزقت ثيابها .
فقالت : **(( وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ))**
فقلت لها : اصبري حتى أعقلها .
قالت : **(( ففهمناها سليمان ))**
فعقلت الناقة وقلت : اركبي ، فلما ركبت
قالت : **(( سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون ))**

قال : فأخذت بزمام الناقة وجعلت أسعى وأصيح
فقالت : **(( وأقصد في مشيك ، وأغضض من صوتك ))**
فجعلت أمشي رويدا رويدا وأترنم بالشعر
فقالت : **(( فاقرؤوا ما تيسر من قرآن ))**
فقلت لها : **(( لقد أوتيتم خيرا كثيرا ))** ، **(( وما يذكر إلا أولوا الألباب ))**
فلما مشيت بها قليلا قلت : ألك زوج ؟
قالت : **(( يا أيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تبدُ لكم تسؤكم ))**
فسكت ولم أكلمها حتى أدركت بها القافلة ، فقلت لها : هذه القافلة فمن لك فيها ؟
فقالت : **(( المال والبنون زينة الحياة الدنيا ))**
فعلمت أن لها أولادا ، وقلت : وما شأنهم في الحج ؟
فقالت : **(( وعلامات وبالنجم هم يهتدون ))**
فعلمت انهم أدلاء الركب ، فقصدت بها القباب والعمارات ، فقلت : هذه القباب فمن لك فيها ؟
قالت : **(( واتخذ الله ابراهيم خليلا ، وكلم الله موسى تكليما ، يايحيى خذ الكتاب بقوة ))**
فناديت يا إبراهيم يا موسى يا يحيى ، فإذا أنا بشبان كأنهم الأقمار قد اقبلوا ، فلما استقر بهم الجلوس
قالت **(( إلى المدينة فابعثوا أحدكم بورقكم هذه فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه ))**
فمضى أحدهم فاشترى طعاما ، فقدموه بين يدي ،
فقالت : **(( كلوا وفي الأيام الخالية اشربوا هنيئا بما أسلفتم))**
فقلت الآن طعامكم عليّ حرام حتى تخبروني بأمرها
فقالوا : هذه أمنا ، لها منذ أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن مخافة أن تزل فيسخط عليها الرحمن ، فسبحان القادر على ما يشاء .
فقلت : **(( ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء و الله ذو الفضل العظيم ))** .

في المساء عاد الملك وعلم بأن المصمم / ريان / قد غادر المملكة وأنه يعتبر الجامع هدية شخصية منه إلى جلالة الملكة .
هنا أحس الملك بشهامة الرجل وبكرمه ، فأرسل إليه في الأسبوع التالي هدايا من ذهب وجواهر وماس تزيد عن القيمة التي كان سيأخذها لقاء عمله .
لم تتمكن الملكة من الاستمتاع بالنظر إلى ذاك الجامع الأنيق الذي يفوق أناقة عن الجامع الذي رأته في مملكة / علم الدين / لأن كل نظرة إليه بدأت تذكرها بتلك القبلة حتى أنه في بعض مراحل التفكير يتحول إلى عبء عليها ، فهي حتى لو أرادت أن تتوب لتتخلص من هذا الإثم وتنساه ، فإن وجود هذا الجامع سوف يذكرها .

توصلت إلى فكرة أن تصارح الملك بالحقيقة ، لعل هذه المصارحة تخفف عنها قوة الإثم الذي لاتستطيع التخلص منه ، وكأنه شبح التصق بروحها .
أمام ذلك ورغم وجلها الشديد من الحديث في الخصوصيات التي ترتقي إلى هذا النوع ، ومن انزلاقها في براثن الكلام لم يبق أمامها غير أن تستعين بصديقة عمرها وكاتمة أسرارها كروان ، فهي صديقة الطفولة المخلصة ، كانت دوما تحكي لها أسرارها ، بل حتى عندما طلبها الملك لم تخبر أحدا بما رأت أن تطلبه منه قبلها .
يومها دعتها إلى البيت وأخبرتها بما رأت أن تطلبه من الملك ، فوافقتها كروان ، واقترحت عليها أن تطلب منه ذلك برفق ، طلبت إليها ألا تنسى بأنها تتحدث مع الملك ، وحتى بعد الزواج عليها أن تبقى محافظة على التعامل معه برفق ، وتطلب منه ماتطلب برفق ، ولذلك عندما كانت تتحدث إليه ، تتذكر وصايا كروان .

جاءت كروان وهي تشعر بأن سرا ما خلف دعوة صديقتها لها ، خاصة بأنها ترى ماهي عليه من اضطراب وحزن .
قالت لها : كروان .. ثم صمتت .
وبعد لحظات أردفت : كروان أريد أن أخبرك بسر لاأحد يعرفه في هذه المملكة ، هذا السر هو مبعث كل هذا الألم الذي يحتل كل ذرة من جسدي وروحي .
قالت كروان : قولي كل ما يقلقك يافلك ، ربما أملك شيئا أقدمه لك ياصديقتي ، اعلمي بأنني لا أهنأ بلحظة راحة واحدة وأنا أراك بكل هذه التعاسة التي لاأعلم ولاأحد يعلم سببها ، فأنت سيدة آمرة ناهية في مملكة كاملة ، ولاينقصك شيء ، وقدر رزقك الله بزوج تتمناه كل فتاة من بنات المملكة ، وكان ذلك بمطلق حريتك واختيارك ، ثم رزقك بولد سوف يغدوا ملكا ويحافظ على اسمك ، وتحقق لك بناء أفخم جامع في المملكة كلها ، هذا الجامع الذي سوف يبقى يحمل اسمك ويذكّر الناس بك .
وبدأت الملكة تروي على أسماع صديقتها ما وقع معها بكل تفاصيله ، ثم الفكرة التي خطرت لها بأن تصارح الملك لعله يسامحها فتشعر بالسيطرة على حالة الكآبة .
لم تصدق كروان ماسمعته من صديقتها ، بيد أنها لم تعلق بكلمة واحدة ، ولكن حذرتها من مصارحة الملك ، لأن الرجل ، وخاصة الرجل الشرقي قد يتساهل في كل شيء ، لكنه يجد صعوبة في أن يتساهل في أمر كهذا .
وأضافت : مهما كان حبه كبيرا لك يافلك فإنه كلما ينظر إليك سوف يتذكر قبلة ذاك الرجل ، وعندها سوف يتردد ألف مرة من أن يضع فمه في ذات الموضع الذي تلقى فم غيره برضاك ودون أي مقاومة منك .
سوف يطفئ هذا الشعور كل أحاسيس الحب التي يحسها تجاهك ياصديقتي ، لن يكون بوسعه أن يكون متجاهلا لأمر بالغ الحساسية كهذا .

وأردفت كروان بهمس خفيض : عليك توقع ما هو أسوأ في اعتراف كبير كهذا ، وهو أن يخرج عن طوره فيكون رد فعله شديدا ، بل بالغ الشدة فينتقم منك ومن ذاك الرجل بشكل مأساوي .
ووجهت إليه نظرتين جاحظتين مردفة : كل هذه الأمور محتملة الوقوع ، أرى أن يبقى ذلك طي الكتمان ، فهذا خير لك ، ولزوجك ، ولابنك ، ولتاريخ أسرتك ، وللمملكة كلها .

عندها أعطتها الملكة وصية توصي فيها أنها عندما تموت يكون غسلها ودفنها في فناء هذا الجامع الذي يبقى يحمل اسم / جامع ستي فلك / ثم يتولى زوجها بنفسه كل سنة غسل هذا الجامع والعناية به ، ويوصي ذلك لحفدتها من بعده .
ولم يبق أمامها غير أن تحتمل صواعق الألم خاصة عندما يقبلها زوجها فتشعر بقوة الإثم وقوة الخديعة ، ويعتريها وجل بأن زوجها يشعر بحالة الإرباك التي تدخلها وهما على السرير الزوجي .
تحولت قبلات الزوج إلى جحيم لايطاق ، بيد أنها لاتجسر على المقاومة ، لاتجسر على فعل شيء سوى أن تحترق بصمت .
ينتابها شعور عميق بأنها كائنة ملوثة في موضع طاهر ، ولاتستطيع التخلص من هذا الشعور الذي يبقى يلازمها في كل الأوقات .
مضت ثلاثة شهور غدت فيها الملكة جلدا على عظم ، وبدت كأنها مصابة بداء خبيث ، فهي لاتملك إلا أن ترتعد وتتجحظ عيناها بنظرات فارغة لامعنى لها .
ألح الملك عليها طويلا كي يحضر كبار الأطباء لينظروا إليها ، بيد أنها أكدت له بأنها لاتحتاج إليهم ، ولاتعاني شيئا محددا .
كانت موقنة بأن أطباء العالم كلهم لو اجتمعوا لن يجدوا لها شفاء ، لأنهم لن ينجحوا في أن يبثوا فيها تلك الروح المعنوية التي خرجت منها مع تلك القبلة التي غدت تسميها القبلة الإبليسية ، وغدت لاتتخيل منظر ذاك الرجل اللعين وهو يتسبب في كل هذه الكوارث الروحية لها .

اكتشفت بأن الثمن كان أغلا من الجامع ، لقد أعطت أكثر مما أخذت ، وكم تنتابها رغبة فيما لو لم تصبح ملكة ، فيما لو لبثت / فلك / الفتاة العادية مثلها مثل سائر نساء المملكة ، تتزوج زواجا تقليديا ، وتنجب أطفالا ، تكوّن بيتا وأسرة ، تنتظر زوجها أن يعود من عمله فيجلب معه الطعام ولوازم البيت ، تبني بيتها لبنة لبنة ، وتشتري أغراضها غرضا غرضا .

يالها من حياة رائعة تلك الهادئة والبسيطة والمقترنة بشعورها بقوة العفاف والنقاء ، إنها كالثوب الأبيض لايقربه دنس .

الآن ، إنها محرومة من كل تلك المشاعر ، مشاعر زوجة تحمل نقاءها وعفافها في نفسها ، تمشي بشموخ وعزة نفس وهي تدرك بأنها تقف على بيت وزوج وأولاد وتاريخ من مجد الأخلاق .

الآن يحتلها شعور عميق بأنها كانت أنانية ، وأنها تسرعت في ذاك القرار ، وما كان عليها أن تطلب المعلم ريان خلسة لتلتقيه وتتفاوض معه .

لقد منحها زوجها كامل الحرية وتعامل معها على أنها ملكة ، وسيدة لسائر نسوة المملكة ، لكنها وجهت هذه الحرية الممنوحة لها في جهة سلبية عليها أن تقبل بدفع ثمنها .

عند صباح اليوم التالي ، نهض الملك كعادته ، استحم وأحضر الخدم له القهوة بانتظار أن تحضر الملكة لتشاركه احتساء قهوة الصباح كعادتها ، لكن ذلك تأخر ، فدخلت ماشطتها لتوقظها ، وهناك انفجرت الماشطة بصراخ مرعب ملأ كل أرجاء القصر وهي تقع على جثة هامدة .

لم يحزن ذلك أحدا قدر أن أحزن الملك الذي بدا في حال كئيبة ، وهو ينفذ وصيتها التي أحضرتها إليه صديقة عمرها وكاتمة أسرارها كروان بعد ساعتين من ذيوع النبأ .

# القســـم الثالـــث

## أم الأطفال

انتفضتْ أمي من نومها العميق بفزع شديد وأطلقت صرخة مذعورة أنفضتني من استغراقي في لفائف النوم .
جلست على السرير خائفا وأنا أحدق في ملامح وجه أمي الشاحبة وسط الضوء الخافت .
راودتني مشاعر وجلة خاصة وأن أبي خارج البيت هذه الليلة بسبب سفره خارج المدينة لضرورات عمله ، ولا أحد غيرها وغيري ، وأخي الصغير ذِكر الذي يرقد في الهزازة بجانب السرير الذي ننام عليه .
رميتُ نفسي في حضن أمي ، بيد أنها وعلى غير عادتها وبدل أن تضمني وتهدئ من روعي ، راحت تمد كفها المرتعشة تنير الضوء بسرعة شديدة وتمد يدها الأخرى بهلع إلى الهزازة الصامتة التي يرقد فيها ذِكر الذي يبلغ ستة أشهر .
رفعتْ الغطاء عن فمه وأخذته بسرعة إلى حضنها وهي تتفحصه متمتمة : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، كاد الولد يختنق .
ثم وكأنها انتشلته من قاع بئر أخذت تتملاه وتردف محدثة نفسها : أخذتني غفوة و نسيت أن أرفع الغطاء عن وجهه .

وبعد بريهات التفتت إلي وكأنها تُفاجأ بوجودي للتو ثم قالت : لولا ستر الله ، وبركة أم الأطفال كان الطفل سيذهب كشربة ماء .
ومن جديد صرتُ أنظر معها إلى وجه أخي الذي أكبره بخمس سنوات ، كان يتنفس بصعوبة بالغة ، ويبلع ريقه ، فهرعتْ به أمي نحو النافذة المحكمة رغم برودة الطقس .
فتحتها وهي تهزه في حضنها وتدنو بوجهه من الهواء إلى أن عادت إليه أنفاسه ، أعادت غلق النافذة ، ثم عادت وجلست على السرير ، أخرجت ثديها ، قذفت خيطا من الحليب على منديل ، وبعد ذلك وضعت حلمة الثدي في فمه ، أخذ يمتص الحليب وبين حين وحين يسحب فمه ، ينظر إلي ويبتسم قليلا ، ثم يعود إلى مصدر طعامه الوحيد في هذا العالم .
بعد نحو عشر دقائق من هذه العملية وغفا على ذراعيها وفمه مايزال في حلمة الثدي .
عندذاك عادت الطمأنينة إلى ملامح أمي وهي تعيده إلى الهزازة وتغطيه برفق تاركة وجهه دون غطاء .
نظرت إلي نظرة لمستُ فيها بعض العذر على عدم مبالاتها بي ، وبعد لحظات طلبت مني أن أذهب معها إلى المطبخ لتصنع إبريقا من الشاي ، عندئذ أدركت لأول مرة بأنني أشكّل سندا لها ، ولن أنس بأنها المرة الأولى التي انتابني فيها شعور بشيء من المسؤولية تجاه أمي ، وأخي ذِكر عندما يكون أبي غائبا عن البيت .
جلبنا الإبريق إلى حيث كنا وصرنا نحتسي الشاي وكأن الصباح قد طلع .
ومن جديد أخذتني في حضنها وكأنها تعتذر بشكل مباشر عن إهمالها لي وهي تتمتم بخفوت : رحمك الله يا أم الأطفال ، غدا سأُخرج دجاجتها .
قلت : من هي أم الأطفال يا أمي ؟

قالت وهي ما تزا ل جالسة تهز أخي بيد وتربت على كتفي في حضنها بيد : أم الأطفال يازاهي تزور الأمهات في الليالي عندما يتعرض أطفالهن لخطر .. صمتت أمي قليلا ثم أردفت وقد بدأت دموع تنزلق إلى أرنبة أنفها : كنتُ نائمة وفجأة رأيتها تدخل من الباب ، تربت على كتفي بقوة وتقول : انهضي بسرعة يا جودي ، ابنك يختنق .
انتفضت كما رأيت يا بني ، وتذكرت بأنني تركت البطانية على وجهه ، قامت أم الأطفال المباركة بواجبها وانصرفت .
شعرتُ برغبة في أن تروي لي أمي قصة أم الأطفال هذه ، فقلت لها وأنا أقاوم النوم : لماذا تفعل أم الأطفال ذلك يا أمي ؟
صمتت أمي ، ثم ألقت نظرة إلى وجه ذِكر الذي بدا عليه مستغرقا في نوم عميق .. مدت يدها تطفئ الضوء ،ثم جاءني صوتها ناعسا كترنيمة نوم : سمعتُ قصتها من جدتك ، أم الأطفال يا بني كانت في الخمسين من عمرها ترعى الأغنام مثل الرجال بعد أن عنست وفقدت الأمل بالزواج والإنجاب .
وانطفأ صوت أمي ، نظرت إلى عينيها ورأيتهما مغلقتين ، فمددت الإبهام والسبابة وفتحت بهما عينها اليمنى .
ابتسمت أمي قليلا ثم أردفت بنبراتها المستسلمة لهبوب نوم ثقيل ، وأنا أدرك بأنها طوال النهار بذلت جهدا هائلا حتى جلت الأواني ، غسلت الثياب ، صنعت الطعام ، شطفت البيت :
كانت / مشكاة / التي غدت تُعرف بأم الأطفال ترعى أغنام أهل القرية ، تأخذها إلى البيادر ، وتعيدها مع الغروب إلى أصحابها ، وكانت تحصل عند رأس كل سنة وفي بدء الربيع من كل بيت على شاة مع وليدها .
كان هذا العمل هو مصدر رزقها مع أبويها العجوزين .
وعاد صوت أمي ينوس قليلا فقلت وأنا أشعر عكسها بحالة تامة من اليقظة : وبعد .. وبعد ؟

- ذات يوم وقبل هبوط الظلام بقليل وهي تستعد لتعيد الرعية إلى أصحابها ، تناهى إلى مسمعها صراخ امرأة من بيت مجاور للبيادر !
تركتْ الرعية واستهدت بسماع الصوت متجهة نحو القرية إلى أن دنت من البيت الذي ينبعث منه الصراخ حتى ترى ما الأمر .
عندئذ يازاهي رأت امرأة حبلى تحمل سكيناً تطارد قطة قائلة لها :
سآكلك أيتها القطة ، شأشوي لحمك وأطفئ هذه الشهية التي تأكلني وتأكل طفلي في بطني .
ويبدو أنها لم تعد تجسر على مقاومة النوم فانسدلت رموشها ، ومنعا من انقطاع صوت أمي مددتُ يدي أداعب وجهها حتى تشعر بأنني في حالة سماع .
استأنفت بعينين مغمضتين : بعد قليل أمسكت المرأة بالقطة وغدت تحدق فيها بشهية .. يابني والله لم أعد قادرة ، غلبني النوم .
خفضتُ رأسي وأنا ما أزال جالسا في السرير . بعد لحظات فتحتْ أمي عينيها لتراني في وضعيتي ، نهضت بتثاقل وهي تتمتم : لاتغضب يازاهي ، سأكمل لك القصة . ومرة أخرى طلبت مني أن أصطحبها إلى المطبخ ، عندئذ صنعت فنجانا من القهوة لنفسها ، ونوّ لتني قطعة كاتو من البراد ، وعدنا إلى موقعنا وقد استعادت بعض يقظتها مع أخذ رشفتين من القهوة :
فهمت / مشكاة / بأن هذه المرأة الحامل من شدة الفقر تريد أن تأكل لحم القطة .
دخلت عليها قائلة : ماذا تفعلين بالقطة المسكينة يا امرأة ؟
قالت المرأة الحامل : إنه الوحام يا عمة ، منذ ثلاثة أيام أكلتني شهيتي لقطعة لحم حتى فقدتُ الأمل ، لم يبق لي أمل في إنقاذ حياة جنيني سوى أن أشوي لحم هذه القطة لعل وحامي ينطفئ قليلا ويريحني .
تساقطت الدموع من عينَي أم الأطفال وهي ترى منظر المرأة المروع والقطة تقاوم بين يديها .

دنت إليها بخطوات واثقة ، أخذت القطة من يديها وأطلقت سراحها طالبة منها الانتظار بعض الوقت ريثما تعود ، ثم خرجت إلى القطيع ، أمسكت خروفا من خرافها وأتت به إلى المرأة الحامل .
بدأت تعمل في إعداد اللحم بمساعدة المرأة الحامل حتى اطمأنت بأنها شبعت لحما مشويا ، عندذاك راودها إحساس بأنها أنقذت حياة شخصين .
تركتْ ما تبقى من لحم الخروف عندها وانصرفت .
عندها فوجئت بأن الظلام الحالك قد أسدل جنحه على أزقة القرية ، تذكرت للتو أنها نسيت أن تعيد الأغنام إلى أصحابها .
أصابها ذعروهي تهرول صوب البيادر حيث ترعى الأغنام ، لكنها لم تجد شيئا !
ترددت في العودة إلى القرية لتروي على أسماع أصحاب الأغنام ما وقع معها ، وهل سيصدقها الأهالي ، ثم بعد ذلك لن يأمنها أحد على شيء لأنها لم تحفظ الأمانة ، فأقسمت ألا تعود إلى القرية خائبة ، وراحت تمد الخطا تحت جنح الليل لعلها تعثر على دليل يرشدها إلى الأغنام التائهة .
فرغت أمي من تناول القهوة ، وفرغت من تناول قطعة الكاتو ، ألقت نظرة إلى ذِكر واطمأنت عليه ، ثم تمددت وغطتني معها بالبطانية وهي تقول بنبرات صعد إليها النعاس مرة أخرى ، وتدعوني إلى النوم :
منذ ذلك اليوم ياولدي اختفت أم الأطفال عن القرية كلها دون أن يظهر لها أثر ، لا أحد يعرف ما الذي جرى لها ، لكنها خلدت في ذاكرة أهل القرية ، وصار الناس يروون قصتها عبر الأجيال ، لأنها مذ ذاك صارت تزور الأمهات في أعماق الليالي وتنبههن لأي خطر قد يتعرض له أطفالهن . فتقوم الأم في اليوم التالي بطهي دجاجة بلدية ، تضعها على البرغل وتنادي أطفال الجيران ليأكلوا من صدقة أم الأطفال .

**لا تلعب بذيلك**

تعود حكايتي مع هذا الرجل إلى نحو ثلاثين سنة ماضية ، عندما كنت في السادسة من عمري ، وأجلس بفيء نافذة بيته الذي يقع إزاء بيتنا ، تلك النافذة الوطيئة التي يمكن لمن يبلغ طوله مترا أن يرى كل ما في البيت من خلالها وهو في الشارع إذا كانت مرفوعة الستارة ، وهي ستارة قماشية مهترئة مأخوذة من ظهار لحاف قديم ، وكانت تُسدل على تلك النافذة فقط ساعة العصر عندما تميل الشمس وتتسلط على البيت بحرارتها خاصة في فصل الصيف .
كان هذا الرجل يعمل آذنا في مدرسة ، شخص أسمر طويل القامة تبدو على ملامحه سمات الحمق ، يرتدي جلبابا بنيا طوال الوقت ، سواء في ذهابه إلى المدرسة ، أو جلوسه أحيانا عند باب بيته على الأرض ، وكانت أحيانا تتعالى صرخاته وهو يطلب إبريقا من الشاي ، أو من الماء البارد دون أن يُستجاب له ، رغم وجود ابنتين وولدين له في البيت إضافة لزوجته .

كانت زوجته امرأة قصيرة القامة، مكتنزة ، بيضاء البشرة ، تبدو على ملامحها علامات المكر والدهاء ، تدخن بفظاظة ، وأحيانا كانت ترمي

أعقاب سجائرها في المنفضة من النافذة فأتلقاها على رأسي من الخلف ،أو تقذف ماتبقى في قعر كأس الشاي فيقع على رأسي مرة أخرى ، وأهرع إلى البيت أضع رأسي تحت الماء ، فتوبخني أمي قائلة : كم مرة قلت لك لاتجلس تحت تلك النافذة اللعينة ، ليتني عرفت سبب جلوسك هناك ؟!

والحقيقة فإن السبب الذي أخفيته عن أمي ولم أخبر به أحدا حتى الآن هو سماعي لتلك المرأة وهي تصرخ في وجه زوجها : لاتلعب بذيلك .

عندما سمعت هذا الكلام أول مرة ، ظننت أن الذي يكبر ينمو له ذيل ، ولكنه يخفي هذا الذيل تحت ثيابه .

وكنت أتخيل أنني عندما أكبر سوف ينمو لي ذيل كبقية الرجال الكبار ، وأنني لن أكون رجلا إلا إذا نما لي ذيل .

ولكنني عندما كبرت قليلا أدركت بأنني كنت على خطأ ، لكن رغم ذلك لبثتْ صورة ذاك الرجل في ذاكرتي ، صورته وهو يخفي ذيلا خلفه .

مضت سنوات طويلة على ذاك الواقع تقاعد فيها الرجل ونقل بيته إلى مكان لاأعلمه ، لكن الآن وبمحض المصادفة وبعد عشرين سنة رأيته لأول مرة ، رأيته يمشي في قلب المدينة ومعه زوجته .

بغتة عادت إلى ذاكرتي تلك المشاهد ، ولا أدري لماذا راودتني رغبة في أن أتبعهما وأنا أنظر إلى قفا الرجل وأسترد قول زوجته السابق الذي لبث في ذاكرتي ، وأرى بالفعل جسما غريبا ينسدل نحو الأسفل ، أنظر إليه وأنا أزداد يقينا بأن ما أراه هو ذيل وليس شيئا غيره .

عادت بي كل تلك السنوات إلى الخلف ، وعدت طفلا أعيش ذات الطقوس ، وأسمع ذات العبارات في هذه المصادفة غير المتوقعة .

لدى دنوي منهما سمعتها تقول له بصيغة آمرة : فور أن تقبض الراتب ، ضعه بيدي فورا ، لاتلعب بذيلك .

تقول ذلك وهي تشد على الحروف وتزجره بنظرات جاحظة ، وهو يخفض رأسه علامة بالإيجاب .

تبعتهما إلى أن دخلا مكتب معاشات المتقاعدين ، فأبرز الرجل بطاقة كانت بيده منذ أن كان خارج المبنى ، تناولها الموظف وصار ينظر فيها ، ثم يلقي نظرة سريعة على وجهه ، يضع البطاقة تحت قلمه بعض الوقت ، ويعيدها إليه بيد وهو يمد يده إلى حزمة نقود باليد الأخرى مناولا إياه راتبه التقاعدي .

في تلك اللحظة وبحركة خفية أراد أن يسحب ورقة نقدية من الأوراق التي تناولها من الموظف ويدسها في جيبه ، بيد أن يد الزوجة كانت أسرع لتنتزع النقود من يده بقوة زاجرة إياه : قلت لك لاتلعب بذيلك ، لسنا بحاجة إليك خلال الشهر كله سوى هذه الدقائق ، فلا تلعب فيها بذيلك .

## زهور المرض

ستة شهور متتالية أمضاها ظهير على سرير المرض ، ستة شهور علمته ما لم تعلمه إياه خمسون سنة من عمره .
الآن يعتريه إحساس منعش بأنه انتقل إلى مرحلة جديدة من مراحل حياته ، مرحلة لم يكن يخبرها بشيء ، ولم تخطر له ذات يوم ، كأنه وليد فتح عينيه للتو على حياة يراها لأول وهلة .
الآن يكتشف حجم الفراغ الهائل الذي كان به رغم أشغاله الكثيرة التي لم تتح له وقتا ليجلس مع أولاده بشكل جيد ، أو يؤدي واجباته الاجتماعية ، أو حتى يختلي بنفسه .
إنه دوما يشكو ضيق الوقت ويضطر إلى تقديم اعتذارات متواصلة عن تقصيره الشديد في أداء الواجبات الاجتماعية ، والإنسانية ، والرَحمية .
/ ظهير / هذا الاسم الذي ليس بوسع أحد من سكان هذه المدينة أن يضع له تقييما ، حتى أولاده يعترفون فيما بينهم عدم استطاعتهم وضع تقييم مناسب لأبيهم .

أحيانا يجدون مبالغ ضخمة في دفاتر حساباته المصرفية ، وأحيانا يطرق الدائنون عليه الباب ويأبى أن يفتح لهم ، يأبى أن يرد حتى على هواتفهم المتواصلة في شتى الأوقات من الليل والنهار ، أحيانا يمضي شهرين في البيت لايرى فيهما وجه الشارع ، وأحيانا يغيب عن البيت ثلاثة شهور دون أن يروه ، أو حتى يسمعوا صوته في الهاتف ليعرفوا مكانه .
أحيانا يتردد في أوساط الناس بأنه رجل مشكوك فيه وله صلات مريبة ببعض الأوساط الخارجية ، وهو لذلك كثير السفر خارج البلاد ، وأحيانا يتردد بأنه رجل وطني نبيل ، وهو الذي كان عضوا في البرلمان في إحدى دوراته السابقة .
أحيانا يقال بأنه رجل متدين ويعرف ربه جيدا ، وأحيانا يقال بأنه رجل ملحد ، أحيانا يقال بأنه رجل أخلاقي ، وأحيانا يقال بأنه فاجر .
أما عندما يشاع نبأ قرب موعد تشكيل حكومة جديدة فيتوقع البعض بأنه سوف يُعيّن وزيرا في الحكومة الجديدة ، ويتوقع البعض بأنه بعد الانتهاء من تشكيل هذه الحكومة سوف يُلقى في غياهب السجون .
فقط منذ ستة شهورأخذ كل شيء يتغير بالنسبة إليه ، أبواب جديدة بدأت تنفتح أمامه ، روائح جديدة بدأ يستنشقها ، أفكار جديدة أخذت تجد طريقها إلى مخيلته .
كان عائدا كعادته من خارج البلاد بعد غياب شهرين ، اتجه من المطار إلى كراج البولمانات عائدا إلى مدينته ومحملا ببعض الهدايا النفيسة لأولاده وزوجته .
في منتصف الطريق وأمام إحدى محطات الاستراحة توقف البولمان ليأخذ الركاب قسطا من الراحة .
نزل بتؤدة دون رغبة عميقة في النزول ، تأمل الطريق وبعض الأشجار المتناثرة قرب الاستراحة ، مشى بضع خطوات في فسحة الاستراحة ، ثم مالبث أن اتجه إلى الداخل وجلس على كرسي .
بعد دقائق أحس برغبة ضعيفة لتناول فنجان قهوة ، طلب ذلك من العامل ، تلذذ في احتساء القهوة حتى بان له قعر الفنجان ، عندذاك ولدى شعوره

بانتهاء مدة الاستراحة ودنو بعض الركاب من باب البولمان ، اتجه إلى المرحاض بخطوات شبه متسارعة ، ولايدري كيف تأخر به الوقت بعض الشيء فخرج متجها صوب الباص الذي كان قد تحرك للتو ومضى في الطريق .
في تلك الهنيهة العاجلة رأى سيارة صغيرة تتقدم من الاستراحة فأشار للسائق بشبه عجلة وطلب أن يلحقه بالباص الذي تركه ، ولم تكن ثمة مشكلة لولا أنه ترك فيه هدايا ثمينة .
استجاب الرجل لمطلبه وغدا يقود بسرعة شديدة ليلتحق بالباص .
لم يتبادلا كلمة واحدة ، كانت أنظارهما متجهة نحو الأمام بحثا عن الباص ، بعد قليل قال الرجل وكأنه وقع على مفاجأة غير متوقعة : هاهو الباص .
ابتسم ظهير قائلا وهو ينظر إلى الباص : أسرع قليلا واعطه إشارة للوقوف .
في أثناء ذلك مالت السيارة إلى الطريق الترابي وانقلبت .
أمضى ظهير عشرة أيام في غيبوبة ليصحو ويرى نفسه في المشفى ، بعد شهرين من العلاج والمكوث في المشفى أذن له الأطباء بالخروج ، فخرج واتجه على الفور إلى خارج البلاد ليتلقى تكملة للعلاج لمدة شهرين ويعود قائلا لأهله بأنه لم يعد يسمع بأذنيه ، وأنه بات يسمع الأصوات من خلال عينيه ، فهو عندما يغلق عينيه لايسمع شيئا البتة ، وعندما يفتحهما تتناهى إليه الأصوات . وبالنسبة لعموده الفقري فقد نصحه الأطباء في الخارج أن يمضي نحو ثلاثة شهور على ظهره دون حراك .
ستة شهور ، كانت من أكثر شهور حياته انفتاحا على الحقائق الكبرى . يراوده إحساس بأنه عاد إلى ذاته ، عاد إلى دفء الحياة ، عاد إلى الناس .
يجلس مع أولاده ، مع زوجته ، مع أقربائه .

بعد نحو ثلاثة شهور من تماثله للشفاء بدأت ظاهرة غريبة تقع على فقراء المدينة ، فبين يوم وآخر ينهض أهل بيت ما من البيوت المعروفة بالفقر ليروا حزمة من النقود تم قذفها إلى بيتهم من خلال إحدى المنافذ .

**خمـس ليرات**

قالت لـه : هذا لايجوز يارجل ، إننا ننفق يومياتك يوما بيوم دون أن ندّخر شيئا ، بيتنا الآن يحتاج إلى لوازم ضرورية ولانملك شيئا غير اليومية التي ننفقها . مئة ليرة كاملة تأتي بها كل يوم وتنفذ من أيدينا كماء من غربال .
كم مرة ألححت عليك أن تجلب لنا حصالة حتى نضع فيها كل يوم خمس ليرات ، ونفتحها بعد فترة نشتري بما ندخره لوازم البيت الضرورية ، لكنك تقول بأننا لانستطيع أن نوفر شيئا . لنفرض يا أبا رنيم أنك تعمل بخمس وتسعين ليرة عند صاحب المحل .. أدام الله نعمة العمل هذه علينا وبارك في صحتك وقوتك ، عملك هذا مستمر ، إنك مثل الموظف ، لا بل أنت أفضل من الموظف لأنك تأتي بيوميتك كل يوم ولانحتاج إلى الاستدانة وتتراكم علينا الديون .

قال الرجل : كما تشائين ، غدا سوف أشتري حصالة قبل عودتي إلى البيت ، وسوف أعطيك كل يوم خمس ليرات .
قالت : اذهب إلى المحلات التي تبيع القطعة بخمس ليرات واجلب لنا من هناك الحصالة ، لاتدفع ثمناً لها أكثر من خمس ليرات ياخبيب .
أحست المرأة براحة وهي تضع قدمي زوجها في طشت وتدلكهما بالماء الساخن ، ثم بعد أن استراح نحو ساعة مستلقيا على ظهره ، قلت بيضتين ، وقطعت بندورتين ، وكسرت بصلة يابسة ، وصنعت كأسين من اللبن ونادته لتناول العشاء .
جلسا معا يتناولان العشاء ويتحدثان عن الحصالة التي سوف تؤمن الكثير من الطلبات وتحسن من وضعهم المعيشي .
في اليوم التالي ومع الغروب عاد خبيب من عمله في محل بيع الأدوات الصحية بواسطة دراجته الهوائية يحمل كعادته كيس الخبز وكيسا يحتوي على بعض متطلبات البيت إضافة إلى حصالة .
بدأت المرأة كل يوم تضع خمس ليرات في الحصالة ، وبعد نحو شهرين ولدى عودته من العمل قالت بأن حاجات البيت لم تعد تحتمل التأخير أكثر من ذلك ، ولابد أن يكسر الحصالة .
تناولا العشاء على عجل ، ثم أحضرت المرأة خرقة كبيرة لفتها على المطمورة ، وأحضرت مطرقة وطلبت إليه أن يكسرها . وضعها الرجل وسط الغرفة ، طرقها طرقات مركزة لتنفلق الحصالة وتكشف عن ثلاثمائة ليرة .
قالت الزوجة وهي تنظر إلى النقود : ياخبيب علينا أن نكتب لوازمنا على ورقة حتى لاننسى شيئا ، النقود كثيرة وسوف نذهب إلى المحلات التي تبيع القطع بخمس أو عشر ليرات .
تناول القلم وبدأت تملي عليه الطلبات وهو يكتب : لنبدأ بلوازم ابنتنا الغالية أولا ، إنها تحتاج إلى صدرية - ثياب داخلية ، لعبة ، قبعة ، لهّاية .

والبيت يحتاج إلى : لقاطات غسيل ، كاسات شاي ، صحون ، ملاعق ، سفرة ، حفارة محشي ، سلة مهملات ، صابون ، مسحوق غسيل ، معجون جلي ، سيف ، بكرة خيط ، حزمة إبر .
أما أنت يا أبا رنيم تحتاج إلى : شفرات حلاقة ، كنزة داخلية ، جوز جرابات .
والآن جاء دوري ، سوف أثقل عليك يا أبارنيم ، لكن ماذا أفعل ، إنها ضروريات لابد منها ، سوف تشتري لي طوقا من الخرز بعشر ليرات ، هل كتبت جيدا ؟
هز الرجل رأسه بالإيجاب ، فأضافت : وبعشر ليرات تشتري حَـلَقاً لأذنَـي ، هل كتبت جيدا ؟
هز الرجل رأسه بالإيجاب ، فأضافت : وتشتري لي خاتما بعشر ليرات ، هل كتبت جيدا ؟
هز الرجل رأسه بالإيجاب ، فأضافت : وبخمس ليرات لقاطة لشعري .
هز الرجل رأسه بالإيجاب . أضافت : وهذه مسك الختام ثقيلة بعض الشيء ، لكنها ضرورية ، والله تشققت قدماي من المشي حافية في البيت ، سوف تشتري لي بعشرين ليرة حذاء من النايلون سوف أرتديه في البيت .
رفع الرجل رأسه ناظرا إليها وتمتم : أمرك يا إسراء .
ابتسمت قائلة : عوضك الله خيرا .
اتجه إلى الدراجة الهوائية ، ملأ إطاريها هواء حتى تكون قادرة على حمل زوجته وابنته ذات الشهور العشرة ، وأخرجها إلى الشارع .
لحقته الزوجة وهي تحمل ابنتها ، وكذلك تحمل كيسا كبيرا للأمتعة وعلى عجل جلست على المقعد الخلفي ليتجه إلى سوق المدينة .
استغرق شراء الأغراض نحو ثلاث ساعات ، وقبل العودة اكتشف الرجل بقاء خمسين ليرة من النقود ، فلم يتردد عندذاك أن يتجه إلى محل لبيع المناقيش ، ومن ثم إلى محل لبيع الحلويات ، ومن ثم إلى محل لبيع

الموالح وهو يتمتم لزوجته : لنسهر الليلة يا أم رنيم ، الذين يسهرون ليسوا أفضل منا .